وعد العمر

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولـــى ٢٠٠٠ م ١٤٢١ هـ

الناشر : المكتب المصرى الحديث

البريد الإلكتروني : almaktabalmasry@hotmail.com

القـــاهـــرة : ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت : ٣٩٣٤١٢٧

الأسكندريـــة : ٧ شـــارع نوبـــار المنشيـــة ت : ٤٨٤٦٦٠٢

المطابـــــع : طريق مصر اسكندرية الزراعي ك ١٠ ت : ٧٤ / ٤٤٤١٠٧٠

وعد العمر

عيسي بيومي

المكتب المصري الحديث

الفصل الأول

هى و من حولها

اسمها فايزه، وقد فازت بما يلحظه معظم الناس من جمال المنظر ويشهدونه من يسر الحال، وفازت بما يدركه البعض ممن يقتربون منها من قوة النفس وعزتها، وفازت أيضا بما لا يلحظ أو يدرك وان اقتربت وتأملت...

شيء تحسه هى فى نفسها ولا تبوح به، ذلك الشيء الذى يعيش فى خبايا الروح وأسرارها تقتفيه إن وجد- فإن أمسكت به استحال عليها التعبير عنه وإن أفلت منها ظل ينفذ لأعماقها مؤكدا وجوده.

وقد أحست هى بوجود ذلك الشيء فى ذاتها وهى لم تزل طفلة لكنها لم تفهمه ولم تلتفت إليه، وكبر معها حين كبرت فالتفتت إليه كما التفتت إلى كل شيء نما فيها ورأته يتغير ويتبدل فى عالمها الخاص، لكن من حولها لم يروا سوى علامات النمو وان أعجبهم ما يرونه، وبدا لمن يعلم- أن الأقدار تحمى هذا الشيء الدفين بتلك الأشياء الظاهرة التى تشغل العين ويخفق لها القلب للوهلة الأولى. فلو كانت دميمة لبحث الناظر عن شيء فى ذاتها واقترب خطوة من سر حياتها، لكن جمالها أسر النظر، ولم تكتف الأقدار وكأنها تحمى فيها شيئا عزيزا نادرا فوضعت فيها تلك النفس القوية الأبية حتى تمنع المتأملين لها من الوصول إليها فتشغلهم بنفسها إذا تخطوا حاجز جمالها الفريد. وقالت لنفسها فى لحظة، لا بد أن الله

خلقنى لأمر ما، واستقرت لهذا المعنى معبرا عن ذلك الخبء لكى تستريح كلما فاض بها حزنها دون سبب معروف.

وكانت المرة الأولى التى التفتت فيها لذلك الشيء فى دخيلتها حين طلبت منها مدرستها مع بنات فصلها أن تكتب عن مستقبلها كما تتمناه وتراه، وكانت فى الصف الأول الثانوى، ولم تعرف كيف تبدأ وحاولت أن تقتفى أثر زميلاتها فتحاكى طموحهن للجامعة وكلياتها المتعددة لكنها لم تشعر بصدى صدق لذلك فى نفسها، صدق رؤيتها لمستقبلها، لم تشعر أنها تريد شيئا منه، وإن كانت لا تعرف ماذا تريد وما تراه فى مستقبلها لتكتب عنه، وفى النهاية كتبت سطرا واحدا: "أرانى قد انتقلت إلى الصف الثانى الثانوى بعد نجاح".

والتفتت إليها مدرستها تسألها وقد وضعت كراستها أمامها

-أهذا كل ما ترينه فى مستقبلك يا فايزه.. أن تنتقلى إلى الصف الثانى؟ إن هذا حديث غدك القريب، وما قصدته أن تفصحى عن آمالك وطموحك كفتاة قدماها تخطوان سنة ١٩٧٠ ويمكنها أن تسترق البصر حتى نهاية القرن دون مجازفة.. انظرى إلى زميلاتك منهن من تمنت أن ترى نفسها طبيبة وأخرى مضيفة وثالثة ممثلة أو مذيعة، بالطبع قد تحقق احداكن أمنيتها ويصبح مستقبلها كما تخيلته وتمنته

وقد لا يتحقق لأى سبب، إنما هى تتمنى شيئا فماذا تتمنين أنت يا فايزه ولم لم تكتبى عنه؟

وسكتت المدرسة تنتظر من تلميذتها جوابا مفيدا وترقب البنات كلهن ما تقول، ورفعت فايزه رأسها ونظرت لمدرستها وأجابتها

- لقد حاولت أن أرى نفسى فى ثياب الطبيبة أو أتمثل يومى فى مصنع أو معمل فلم أشعر بالسعادة ولم يزه خيالى، وحين راجعت حاضرى أسترشد به لم أجد دليلا لمستقبلى فيه سوى المذاكرة والانتقال إلى الصف التالى.

وحاولت المدرسة أن تستقصى ما فى عقل تلميذتها.. أحقا توجد فتاة لم تتمن أمنية زاهية وإن كانت واهية؟ فسألتها

- ألم تسألى أحدا من والديك المساعدة؟

فأجابتها فايزه

- نعم فعلت وقال والدى عليك أن تتقصى فى نفسك الحقيقة وتكتبى ما تؤمنين به وهذا ما فعلت.

واستمرت المدرسة تناقشها

- لكنك لم تكتبى غير سطر واحد وهو لا يصلح موضوعا للإنشاء.. هل قرأت على والدك ما كتبت لتأخذى رأيه؟

وأجابتها التلميذة

-فى الحقيقة لم أفعل.

وسكتت، فأنهت المدرسة المناقشة قائلة

-لن أستطيع إعطائك درجة على موضوع تكتبين فيه سطرا واحدا، لكننى سأمنحك فرصة أخرى للمحاولة.

وانتقلت المدرسة للتعليق على ما كتبته تلميذة أخرى وتركت لفايزه ذلك اللغز تحاول فيه.

وعادت فايزه إلى بيتها وهى فى حيرة، إذا لم تكتب موضوعا مرضيا لمدرستها لن تعطيها درجة لائقة وهى تهتم كثيرا بحصيلة أعمال السنة وتباهى بها أخاها الأكبر لكنها لا تعرف ماذا تكتب. ورآها أخوها ساهمة على غير عادتها فسألها

-ما بك يا صغيرتى؟

وكانت تلك عادته حين يناديها، كان الفرق بينهما فى العمر ما يقرب من ست سنوات وكان يهوى تدليلها ومداعبتها وهى تحب منه ذلك وتستجيب له، فشرحت له مشكلتها وضحك عاليا وهو يقول

-حل هذه المسألة يسير، تعرفين صديقى إسماعيل، صحيح أنه طالب متفوق فى الهندسة لكنه بارع أيضا فى كتابة مواضيع الإنشاء، وهو آت هذا المساء للمذاكرة معى سأطلب منه أن يكتب لك هذا الموضوع ولا تهتمى هذا الإهتمام الذى يحرمنى من شغبك.

وبدا أن مسألة الدرجات قد وجدت حلها، لكن المسألة الأهم فى نفسها لا زالت غامضة! وصدقها أخوها فهمى وعده، فبعد يومين من حديثه إليها أعطاها ورقتين وقال لها

– تفضلى يا صغيرتى موضوع التعبير الذى أقنطك، كتبه إسماعيل فى أقل من ساعة وهو مستعد لكتابة أية موضوعات أخرى تستعصى عليك.

وابتسم ابتسامة لم تفهمها وإن لاحظتها، وتذكرت فى لمحة عمق الصداقة بين أخيها وصاحبه، لكنها لم تلتفت كثيرا لابتسامته ولم تسترسل فى تذكرها واختطفت منه الورق وأسرعت لحجرتها تقرأ ما كتبه إسماعيل عن مستقبلها كما تتمناه!

ودارت فى رأسها كلماته وهو يصورها زوجة صالحة تكافح إلى جوار رجل يشق طريقه فى الحياة صاعدا لأعلى الدرجات وهى تسانده وتؤازره، المثل العليا حياتهما ومبدأ الخير هاديهما. وأعجبها أن يبتعد بصورتها فى تقديره عن نمط زميلاتها الذى يغلب عليه الإثارة ويغرق فى الخيال.. لكنها بالرغم من ذلك حين طافت بكلماته فى أعماقها لم تهتز كأن شيئا ينقصها ما هو؟ لا تدرى.

ونبهتها تلك الحادثة لإسماعيل فى مدخله ومخرجه من بيتهم وجعلت ترجع إليه كلما ضاقت عليها كراسة التعبير، وكان ذلك

يسعد فهمى ويجعله يداعبها بأن صديقه صاحب الفضل فى إنتقالها إلى الصف الثانى الثانوى، ثم يطيل الحديث عن حياته وأسرته وكفاحه وتفوقه المطرد، وكانت تنصت إليه مظهرة قليلاً من الإهتمام بينما تجلس لنفسها ساعات تراجع كل كلمة قالها.

وقد أثار إسماعيل خيالها من جانبين، اعتزاز أخيها به وصحبته الدائمة له وهى تحب فهمى جدا، والجانب الآخر واقعه الذى يعيشه والذى اكتملت صورته فى إدراكها من متفرقات الحديث عنه. فقد كان من أسرة فقيرة للغاية، له ثلاثة أخوة أكبر منه وكلهم أنهوا تعليمهم فى السنوات الأولى من المدارس الابتدائية وزاول كل منهم ما دفعته الأقدار لتعلمه من مهنة، فباشر أحدهم إصلاح السيارات وآخر صناعة الخبز والثالث أكبرهم رافق أباهم فى صناعة الجلاليب البلدية.

وما كان تفوق إسماعيل فى دراسته الأولى بشفيع له ليسلك طريق العلم حتى الجامعة، إنما ترتيبه فى أسرته كأصغر الأولاد أبعده قليلا عن كفاح لقمة العيش.

وهيأته تجربة العمل مع اخوته كل إجازة صيفية لأن يتأكد من قيمة أن يكمل تعليمه ويصيب مركزا اجتماعيا لن يحصل عليه دون ذلك الطريق، وقد كانت تلك إشاعة العصر فى مجتمعه، فلا بد أن

يتعلم ويتفوق لأن نجاحه مرهون بالقدر الذى يصيبه من تعليم، واشترط عليه والده شرطا مقابل أن يتركه يذهب إلى المدرسة وهو ألا يسأله مالا ويكفيه أنه سيتركه يأكل وينام بدون مقابل وهو قادر على الكسب مثل أخوته. ووضح فى عقل إسماعيل أن التعليم هو سبيله الوحيد للخلاص من الفقر والحاجة وإجازته من قاع المجتمع لمرتقاه، فأعطاه كل طاقته، ومع ذكائه الفطرى تفوق على زملائه فى كافة صفوف الدراسة وتحلى مع ذلك بخلق طيب، ربما كان نتيجة انشغاله بدرسه وانكبابه على تحصيله فلم يجد وقتا لتقليد السوء. وكان كل همه أثناء أجازته الصيفية أن يوفر المال الذى سيحتاجه للسنة المقبلة ولم يكن يستنكف أى عمل يؤدى هذا الغرض فعمل مع أخيه فى إصلاح السيارات بعض الوقت وعمل مع أخ أخر فى أحد المخابز لنقل الخبز إلى زبائنه وأحيانا فى صنعه وعمل مرات فى مصانع المياه الغازية بعقود مؤقتة لمراقبة نظافة الزجاجات وأحيانا لملء الصناديق بالزجاجات المعبأة. وقد كان إسماعيل وسيم الطلعة محاولا قدر إمكانه إصلاح هندامه ونظافته فاجتمعت له صفات كثيرة تقرب منه زملاؤه وأولهم فهمى والذى صادقه منذ المدرسة الإعدادية وظلا كذلك يتقدمان فى التعليم حتى وصلا إلى الجامعة.

وقد لاحظ والد فهمى تلك العلاقة المتوطدة بين إبنه الأكبر وإسماعيل ولم يعترض عليها لما علمه من تفوقه وحرصه على دراسته وما لاحظه من أخلاق طيبة بادية فى مسلكه، فنمت هذه الصداقة وتطورت منذ الصغر، لكن الأب الخبير بشئون الحياة قال لابنه يوما اثر نجاحه وصاحبه فى الثانوية العامة وتقدمهما معا لكلية الهندسة

-أنت تعلم يا فهمى أننى لا أنهاك عن أصدقائك خاصة الجاد منهم، وصديقك إسماعيل أكثرهم جدا.. لكنه شديد الطموح، وأنا أعرف أنه الوحيد فى اخوته الذى استطاع أن يفلت من إسار الجهل رغم فقره، وهذا مكمن خطره، فهذا الصنف من الناس لا يمكن معرفة ما يفكرون فيه بعد حين، فأرجو أن تلاحظ صداقتك به..

ولم يفهم الابن مقصد والده فسأله

-هل تقصد أننا أغنياء ولا يصح لنا أن نصادق الفقراء.. لقد كنت نفسك عصاميا يا والدى.

وحاول الوالد أن يفسر لابنه مقصده فقال

-أنا يا ابنى لا أقصد المال فقط.. على كل حال سوف تتبين مقصدى فى حينه، لما يبدأ كل منكما حياته الحقيقية.

وتركه فى حيرته التى لم تدم طويلا لأنه نسى ما قاله والده بعد أيام. وقد كان لفهمى تلك الشخصية الواثقة المتسمة بالوعى الإنسانى النافذ ترى الأمور مهما بلغت تعقيداتها بنظر الآخرين فى صورة بسيطة هادئة لا تكترث للضوضاء حولها مهما تشكلت فى مخاوف أو تهديدات المهم كيف تتشكل فى ذهنه هو. فلا يهمه أن أبيه موسر وأنه يمتلك مصنعا للنسيج بناه بكفاحه على بقايا ماكينات متهالكة تركها له جده وأنه استطاع أن يصمد لتيارات التغيير المستمرة على الصناعة الوطنية، إنما يهمه أن يستطيع هو أن يحقق لنفسه النجاح والغنى، فعليه أن يضيف لقافلة الناجحين عضوا حقيقيا لا أن يحتمى فى رحلته معها بأحد الأعضاء وإن كان ذلك العضو والده، ولا يهمه ما فهمه من والده لحظة ثم نسيه من أن الغنى الذى تتميز به أسرته سيفرق بينه وبين صديقه الفقير، إنما يهمه أنه وصديقه متفاهمان على درب الحياة عازمين على المضى فيه قدما محققين ما أرادا. وقد أكسبه هذا الوضوح وما تبعه من استقلال فى الرأى والمنطق جاذبية الآخرين وإعجابهم، وأكسبه حب أخته الوحيدة فايزه والتى كانت ترى فيه ما تتمناه فى نفسها من جلاء الطوية.. وماذا أهمها فى حياتها أعظم من أن تجلو طويتها عن ذلك الخبء الدفين.

قالت له مرة أثناء حديث معه

-بقيت أيام على إعلان نتيجة امتحانك النهائى وتخرجك من الجامعة.. لابد أنك قلق وخائف؟

فضحك وقال لها

-إنما يقلقك أنت اختبار وامتحان أما أخيك فهو من الناجحين دائما.

فغضبت منه وقالت

-لا تنس أننى أنهيت الثانوية بنجاح وأننى قبلت فى كلية العلوم.. قلقى يكون قبل الامتحان وذلك لا يضير.

ثم استطردت بعد صمت قصير

-وماذا ستفعل بعد نجاحك بكل هذه الثقة؟

أجابها :

-هذا سر لن أخفيه عن صغيرتى بشرط أن تكتميه، فسوف أنشئ مصنعا مع إسماعيل، نحن نخطط ونحلم بذلك منذ البداية.

فرددت فايزه فى سرها "دائما إسماعيل" ثم قالت وهى تنهض منهية حديثهما

-سوف أكتم سرك الخطير لكننى سأستغل ذلك فلحذرنى.

وسبقتها ضحكته ثم استوقفها بقوله

-إسماعيل أيضا لديه سر يريد أن يطلعك عليه أم تـراك تعرفينـه؟ أظن البنات ذكيات فى استطلاع أسرار كتلك.

فعادت أدراجها إليه وقد أحمر وجهها وقالت

-ماذا تعنى الآن بكلامك هذا؟

وعاد يحاورها

-لا تخادعى أخاك يا فايزه، لا تقولى أنك لم تلاحظى اهتمامه بك وسؤاله المتكرر عنك طوال السنوات الماضية.

أجابت صادقة

-نعم لاحظت ذلك لكننى لا أحسبه سـرا فـأنت تعلـم أنـه كـان يكتب لى بعض موضوعات التعبير.. بل كنـت أنـت الـذى أقـترحت ذلك من البداية.

فقال لها

-الأمر أكبر من هذا فى نظره، فـهو معجـب بـك جـدا وأملـه أن يتقـدم لخطبتـك لكنـه ينتظـر الوقـت المناسـب، هـل تصدقيـن أن إسماعيل مرشح للمركز الأول فى دفعتنا؟

سكتت فايزه ولم ترد فما يقولـه أخوهـا صادقـا ويصـوره بكلماتـه واضحا لها دون تعقيد تعرضه على أعماقها فلا تهتز له.

وقد مرت سنتان بعد هذا التصريح لم تر فيهما إسماعيل ببيتهم سوى مرات قليلة خاطفة لأن أخاها كان قد جند فور تخرجه وتم ترحيله إلى وحدة قريبة من قناة السويس أما إسماعيل فعين معيدا بالكلية وسجل لدراسة الماجستير فى الهندسة وتأجل تجنيده لهذا السبب فيما يبدو.

ومع عامها الثالث فى الجامعة تقدم لخطبتها الدكتور حامد إبراهيم مدرس الطبيعة بكلية العلوم التى تدرس بها وكان قد انتبه إليها مع بداية محاضراته للسنة الثالثة. لفته إليها فى أول الأمر ما يلفت كل من ينظر إليها، جمالها المريح للعين والنفس، بشرتها البيضاء الناعمة التى تخلو دائما من أية مساحيق، عيناها السوداوان الواسعتان اللتان تضحكان تفاؤلا وإقبالا على الحياة، وشعرها الأسود الناعم المنسدل على كتفيها لم تفعل فيه شيئا سوى تنظيفه وتمشيطه. ولم يكن أمرا غير مألوف أن يوجد بكل دفعة طالبة أو طالبتان ملحوظتا الجمال، لكن الذى نبهه إليها بعد مضى شهور بقدر جعله يتقصى حياتها وسيرتها هو حيويتها الفائقة. فقد كانت محاضرته دائما تأتى فى آخر اليوم الدراسى، والمحاضر أمام مائتين من الطلبة أو نحو ذلك يمكنه بعد عدة محاضرات لنفس المجموعة أن يستشعر سلوكياتها كمجموعة ويترسم لها إطارا عاما، وقد كانت

المحاضرة الرابعة فى آخر اليوم هما ثقيلا على نفوس الطلبة لإرهاقهم طوال اليوم فيتمنوا أن تنتهى بسرعة. لذا كان يشعر منذ لحظة دخوله المدرج بإيحاء المجموع أن ينهى حديثه عاجلا فهو خير لهم جميعاً، فتعب اليوم وإرهاقه باد فى الوجوه خاصة والمحاضرة كانت تأتى آخر الأسبوع.. إلا فايزه التى كانت تجلس فى منتصف المدرج وأحيانا أقرب إليه من ذلك، كانت تبدو وكأنها حاضرة لتوها من بيتها.. نضارة محياها، جلستها الممشوقة المعتدلة، عيناها اللامعتان ببريق النشاط والحركة. ولما كانت قد لفتت أنظاره من قبل فقد نبهه هذا الاستعداد الطبيعى وتلك العلامة الظاهرة فيها فزاد اهتماما بها وأخذ يتقصى أمرها، وكان يلاحظ ما يحيطها من علامات اليسار التى تظهرها الأنثى دون قصد أو بقصد فى ملبسها وحليها إلى جانب تصادف رؤيته لها وهى تهبط من سيارة بسائق عدة مرات أمام باب الكلية، كل ذلك جعله يطمح أن تكون تلك الطالبة فتاة حلمه وأن يتزوجها. وقد قرر ذلك فى نفسه وانتهى إليه حين تساءل فى بداية إحدى محاضراته

-من منكم التحق بقسم الطبيعة والرياضيات برغبته، ومن يتمنى أن يلتحق بقسم آخر؟

وأخذ ينتقى للإجابة عن سؤاله عددا من الطلبة وآخر من الطالبات وحين وقع اختياره على فايزه قالت

-دخولى كلية العلوم كان على أساس مجموعى فى الثانوية العامة وكذلك دخولى هذا القسم بناء على درجة نجاحى فى السنة الثانية، لكننى على أى حال لم أرغب فى قسم آخر أو حتى فى كلية أخرى.. المهم أن أتعلم شيئا.

فقد كان الدكتور حامد إبراهيم يظن أن قبول طالبة للزواج به يحمل فى طياته دائما طموحها كى تسلك مسلكه وتصبح يوما أستاذة وهى تطمع من زواجه بها أن يمهد لها تحقيق هذا الهدف، وكان ذلك سببا فى إحجامه عن التفكير فى الاقتران بطالبة، ولما أجابته فايزه تلك الإجابة وعلم أن مستوى تحصيلها للعلوم يؤهلها للنجاح فقط وليس للتفوق بدت أمامه فتاة مثالية على قدر ما يتمناه زوجة تسعده ولا تنافسه تمضى إلى جواره لا تسبقه، وظن أنه يكفيه علمه ومركزه وأنه قادر على الزواج وأنه ماديا غير محتاج، ولم يكن عسيرا أن يعرف عنوانها وأن يحصل على رقم تليفون والدها ويحدثه طالبا لقاءه.

وفوجئت فايزه بالدكتور حامد فى مكتب والدها يوما من الأيام وكان العام الدراسى ينصرم وهى تستعد للامتحان، وظنت أن لأبيها

به صلة ما وأنه ربما يطمئنه عليها، لأبيها قدرة عجيبة على الكتمان. ثم عرفت فايزه من أمها بعد عدة أيام أنه جاء لخطبتها وأن أباها أجل الرد عليه لما بعد الإنتهاء من الامتحان.

استرسلت ذاكرتها حينئذ تتقصى صورته وحديثه فى محاضراته خلال عام مضى وتتعقب أثر ذلك فى نفسها فلم تجد غير أستاذ مثل بقية الأساتذة لا أثر له سوى محاضرته ومادته التى يدرسها وامتحان تؤديه فى لجنته وواجبها أن تنجح فيه، وأدهشها أن يتقدم لخطبتها دون أن تلحظ منه اهتماما ما بالكلية فضلا عن أن يأخذ رأيها مقدما، ثم زالت دهشتها حين سألت نفسها عما أوحى له بهذه الفكرة ووجدت الإجابة فى أنه رأى فيها ما أعجبه دونما حاجة لترى هى فيه ما يعجبها، ثم تعمقت فى الإجابة وفهمت أن الذى أعجبه هو مظهرها الخارجى وما يوحى به ومسلكها وما يشير إليه ويبدو أن هذا ما يكفيه فى امرأة يتخذها زوجة، أما أن يتقصى ما فى أعماقها هى ويحسه فذلك أمر مؤجل مقدور عليه، لا يهم.

بعد إنتهاء امتحانها للسنة الثالثة بحوالى أسبوع طلبها والدها ذات مساء فأقبلت عليه بحجرة مكتبه ووجدت والدتها تجلس أمامه وبدا أنهما كانا يناقشان أمرا.. والمناقشة مع والدها ليس لها سوى معنى واحد أن تسمع لما يقول، ربما تستفسر أو تؤكد، لكن ليس

مفهوما من جانبه على الإطلاق أن تعترض أو ترفض أو تحاور، وقد استطاعت والدتها أن توافقه فى طريقة المناقشة وشكلها الغريب لكنها كانت قادرة إذا تطلب الأمر أن تدبر له على غير ما قرر ورأى. فكانت لغة للحوار نادرة احتفظ فيها كلا الطرفين بحقه وإن لم تظهر ذلك ظواهر الأمور.

جلست فايزه إلى جوار أمها وبعد لحظات توجه إليها أبوها بالحديث وهو ينظر إلى زوجته بين الحين والآخر كأنها تؤيد حديثه.. قال

-تعرفين الدكتور حامد إبراهيم مدرس الطبيعة بكليتك، لقد أتى إلىّ منذ فترة لخطبتك، فطلبت منه الانتظار لما بعد الإنتهاء من الامتحان حتى نعطيه ردنا..

ثم أضاف بعد صمت قصير

-فى الحقيقة الحاج عبد الجواد طلبك لابنه عصمت بعد ذلك بقليل، وهم ناس طيبون نعرفهم منذ زمن. الحاج عبد الجواد رجل له شأنه فى عالم النسيج ومصاهرتنا له تمنح أسرتنا حصنا متينا فى السوق وتقوى مركزنا التجارى وأنت تعرفين عصمت.. هو أفضل خلقا وأكثر رجولة من أخيه واعتقد من حديث والده -أنه هو الذى طلب من والده أن يسعى لخطبتك له.. الدكتور حامد مجرد معجب

يرى فى نفسه المواصفات المناسبة لكننى احترمته لأنه سلك نحونا مسلكا محترما فلم يصارحك أو يلمح لك بغرضه وطلب البيوت من أبوابها.

ثم أضاف عبد الحميد جودت والد فايزه وبصرها مركز فى وجهه تحاول أن تقرأ مستقبلها من بين طياته كما قدره وقرره

- لقد قررت أن اعتذر للدكتور خامد عن رفضنا طلبه وأفضل الاستجابة لرجاء الحاج عبد الجواد فما رأيك؟

ردت فايزه

- إننى يا والدى لا أعرف الدكتور إبراهيم كى أخير عليه عصمت.. وحتى عصمت لم أره منذ كنا معا فى المدرسة.

قاطعها والدها

- لكنه لا يزال يذكرك بدليل أنه فكر وقرر اختيارك زوجة له كما أننى أعرف والده معرفة جيدة، إنها عائلة ثرية يا فايزه ولا مطمع لهم فى أموالنا كما قد يكون البعض.

وسكتت فايزه ولم ترد.. واستمر الأب

- أرى أن ننتهى من مسألة الخطوبة هذه فى الصيف وحتى تنهى دراستك فى العام القادم يمكن تدبير أمر الزواج.

قالها بحيث تشعر أن عليها الآن أن تنصرف لتحيا مع واقع جديد يزحف على حياتها لا تعلم أبعاده وليس لها يد فيه، لكن ذلك لم يمنع عقلها من التحليل والتقدير. ماذا يريد منها هؤلاء الرجال؟ كيف يفكرون فيها؟ من هى فى زعمهم، هل منهم أحد يعرفها ويمكنه أن يخبرها من هى؟ مدرسها رأى فيها صورة حلوة يتزين بها فى مجتمعه تنتمى إليه ما تبقى من عمر، تضيف إليه ما ظنها تملكه أو ما افترضه ملكا لها، ماذا ظن غير جمال الصورة وحسن التربية، وماذا افترض سوى كثرة المال فى البنوك؟ أما أن يستبين ما فى أعماقها ويتقصاه وينظر هل هو من قبيل ما يتمناه، أما أن يتحقق من فحوى نفسها ليتأكد إن كانت توافقه وتتفق معه فهذا ما لا يخطر بباله. أما ابن الجيران الذى لا يزال يذكرها ويختارها زوجة له بما تبقى فى ذاكرته من أحلام المراهقة، لأنه يستطيع أن يحقق حلمه فهو يسعى إليه واثقا، أما أحلامها هى وإن كانت من غير عالمه أما عمرها الذى عاشته بعد أن تباعدت بهما الأمكنة فذلك يمكن حذفه وتنزيله، وبم تحلم فتاة وأى شىء يضيفه إليها عمرها مهما طال غير ما يفترض وجوده فى رؤوس كل الفتيات، زوج مثالى من عائلة ذو مركز ومال ووسامة تختلس الغيرة والإعجاب؟

وتحاول فايزه مراجعة ما فى نفسها نحو هؤلاء فيحركها خبؤها الدفين أن ليس هؤلاء، وأنى لها أن تحكم دون معرفة إلا بإلهام النفس وحركة الروح، حتى أبيها لم تحركه إلا ظواهر الأشياء، أنه وإن كان يختار لها ما يحميها غول الأقدار فى رأيه لم ينس نفسه فى الاختيار، فهو يرجح كفة عصمت لأن أباه سوف يصبح له سندا فى عالمه ولأنه سوف يقوى به ويشتد..

وفوجئت بفهمى يقطع عليها استرسال أفكارها وقد دخل حجرتها دون أن تشعر به،قال

- لم أرك فى حالة كتلك إلا نادرا، فقط حين تواجهين أمرا لا تقدرى عليه.. أما وقد حضرت فكل ما تطلبين رهن إشارتك.

فقالت محاورة

- تريد أن تفهمنى أن ليس لديك علم بما يجرى تدبيره لأختك الوحيدة.

أجابها صادقا

- تلحظين انشغالى هذه الأيام.. أقضى كل وقتى منذ أنهيت الخدمة العسكرية مع إسماعيل نتدبر كيف نبدأ تحقيق حلمنا بإنشاء مصنع.

وكانت تعرف متى يتحدث بجد دون مواربة فأصدقته القول

-أخبرنى والدى الليلة بتقدم الدكتور حامد وعصمت ابن الحاج عبد الجواد جارنا القديم لخطبتى وموافقته على عصمت وأن الصيف يناسب إعلان خطوبتنا وبانتهاء دراستى يكون زواجنا، أرأيت كيف تتحقق مسيرتى فى الحياة؟

قال لها والغضب يلوح فى وجهه

-لكنك تعرفين أن إسماعيل يسعى للزواج بك، ألم أخبرك بمضمون ذلك من قبل؟ لا يمكنك أن تحطمى أمله بهذه البساطة وهو أعز صديق عندى بل هو صديقى الوحيد. أنا أعرف كم هو متعلق بك منذ كنا طلبة نستذكر دروسنا معا.

ثم أضاف بحدة غريبة عنه

-ارفضى عصمت هذا.. اخبرى والدك بقرارك هذا سريعا وسأحاول من جانبى أن أمهد لإسماعيل ليتقدم لخطبتك.

ثم قال كأنه تذكر شيئا

-وأمى كيف تقبل هذا وهى تعرف برغبة إسماعيل ووعدتنى خيرا بانتظار الوقت المناسب، لن يمكننا الانتظار أبعد من هذا ولسوف أحدثها فى الأمر الآن لأعرف ترتيبها.

كانت فايزه تنظر إليه فى دهشة بالغة غير مصدقة ما تسمعه ثم قالت وقد هدأ

-لكنك يا فهمى لا تعرف رأيى فى إسماعيل حتى تتصرف بهذه الطريقة وكأننى أوافقك وأوافقه.

فقال وكأن قوله فيه الكفاية

-إنه يحبك يا فايزه ألا يكفى هذا؟ هل ترفضيه لفقره؟ سوف يصبح غنيا يوما ما، والمجتمع لا ينظر الآن للعائلات وأواصر النسب بل إلى اجتهاد الرجل وكفاحه وعلمه، فلماذا ترفضيه إذن؟

وتعجبت فايزه لأمر أخيها وقالت كأنها توقظه من سباته

-أنا لم أرفضه ولم أقبله، قلت لك أنك لا تعرف رأيى فكيف تندفع فى تدبيرك؟

فنظر إليها وقال

-اعتبرت رأيى هو رأيك دائما فلم يتغير فى هذه المسألة، ألست أنت فايزه صغيرتى؟

وبدا أنه مس فيها شيئا عميقا فقالت له وهى ساهمة

-دعنى أفكر فى الأمر.

لكل سلطان طفولته ولا ينزل عن عرشه فى النفس أبدا وكان فهمى سلطان طفولتها.

هكذا استطردت أفكارها.. إسماعيل لا يحرك مشاعرها هذه حقيقة، لكنها حركت مشاعره، هو لا يؤثر فيها لسبب عميق فى نفسها

لكنها حتى هذه اللحظة لا تعرفه إلا من خلال أخيها، وحين تنظر إليه يبدو إنسانا عاديا لا يأتلف أثره على نفسها مع نغمات روحها ولكن ألا يمكن أن ما تحسه فى ذاتها وهما وأن الأمر الذى خلقت من أجله عليها أن تبحث عنه بعقلها؟ وجربت هذا الإحتمال فوجدته ممكنا. فإسماعيل فى حاجة لمن يقف إلى جواره يؤازره ويسانده ويعلو به فمقومات النجاح لديه بينما طريق التحقيق والتنفيذ كما هو لأمثاله طويل وصعب، هنالك للرفيق دور صانع لا دور تابع. وغافلت فايزه بفكرها نداء النفس الذى لم يجد استجابة من واقعها وتابعت نداء العقل الذى وافق سلطانها، وبدا من صداه تردده فى واقع ملموس ومحسوس. وتركت الأمر عند هذا الحد ولسان حالها يقول إن كانت رفقة حياة فلتكن مع الذى أكون معه صانعة لا تابعة.

واستطاع فهمى بذكائه أن يعيد أمه لسابق موافقتها على إسماعيل قائلا لها بمكر

-عيبه الوحيد فقره لكنه أفضل من غنى عصمت ووالله، فالرجل إذا تزوج فقيرا وكانت امرأته غنية ظل دائما أسير رضاها وقبولها به مهما تحول بعد ذلك.

وفهمت أمه مغزى كلماته، فقد كان يحزنها دائما الفارق المادى بين أسرتها وأسرة زوجها وإشاراته الخفية إليه كلما أغضبه منها أمر،

فاعتقدت أن المال يرجح كفة من يملكه دون النظر لجنسه ودفعها حبها لابنتها وأمنيتها أن تصيب من السعادة فى مستقبلها أعظم مما أصابت أن تقبل برأى ابنها وان لم يخف عليها دهاءه.

وبقى لفهمى مهمته العسيرة فى معالجة المسألة مع أبيه، قال له بعد أن تطرق إلى الموضوع

-إسماعيل كانت لديه النية دائما لطلب يدها، هو الآن حاصل على الماجستير فى الهندسة ويمهد لمباشرة بعض الأعمال الحرة وندرس معا بعض المشاريع فمستقبله مبشر وهو إنسان نابه علاوة على أخلاقه الطيبة.

قاطعه والده بعنف

-مسألة زواج أختك قطع فيها بقبول طلب الحاج عبد الجواد يدها لابنه عصمت، لقد نبهتك من قبل لخطورة طموح أمثال صديقك إسماعيل هذا.

ثم استأنف بعد لحظات

-هل يمكنك أن تخبرنى من أين له بمسكن يناسبها وحياة تليق بها؟ أرجوك لا تحدثنى عن نفسى وما كافحته فى حياتى فواجبى أن أحمى أولادى مما واجهته من أخطار، إذا كنت حقا تحب أختك فواجبك أن تبحث لها عن الخير والحياة السعيدة الميسرة ودع

مسألة صاحبك هذه لا تتعدى علاقتك به أنت حر فيها أما ابنتى فأنا أدرى بمصلحتها.

وانتهى الأمر بفهمى مع والده عند هذا الحد، ولم تفلح أية محاولات لإثناء الأب عن عزمه سواء منه أو من أمه، أما فايزه فلم يكن رفضها لعصمت واضحا بدرجة مقنعة لأبيها تجعله ينظر إليه بعين الإعتبار وقد قال لها موضحا ومؤكدا وجهة نظره

-إننى يا ابنتى حريص عليك، أنت لا تعرفين إسماعيل الذى يصر أخوك أن يقحمه علينا ويستغل حبك له ومعزته عندك للتأثير على قرارك ومعصية أمرى، فلقد علمت من أحوال أسرة إسماعيل ما لا تعلميه ولا أظنك سألت نفسك عنه، ولا أقصد بذلك فقرهم كما يحلو لفهمى أن يتصور فالأمر لا ينحصر فى المال فقط وإنما هذه الأسرة تفتقر للأمانة ونخوة أهل البلد وشهامتهم وقد حكى لى من يعرفهم كثيرا من القصص فى هذا المعنى لا داعى لذكرها لك ولا أنكر أن إسماعيل لم يظهر شيئا كريها طوال معرفته بأخيك لكن ما ترينه من النبات ظاهرا يعجبك والأرض تبطن ما هوأهم من جذور وذلك محك المستقبل أو بمعنى مختصر الأصل، وأصل هذا الرجل لا يطمئننى وضمير الأب يتحرك فى نفسى إذا سمحت له أن يختلط

بأصلك ويعرضك لما قد لا يعرفه فى نفسه من أفعال الوراثة وكيمياء الحياة.

ثم أضاف منهيا حديثه

-دعى فهمى يتحمس له كيف شاء فما يخسره الإنسان فى صديق أقل مما تخسره المرأة من زواج غير متكافئ الأصول.

وكان ما وقر فى ذهن فايزه أثناء حديث والدها قوله أنها لا تعرف إسماعيل، فقد لاحظت أنه بالرغم من كل ما يجرى بشأنهما لم يسع لمقابلتها والحديث معها وكأن الأمر لا يعنى غير فهمى ولما نقلت لأخيها استغرابها لهذا الموقف قال لها أنه طلب عدة مرات أن ينفرد بالحديث معها لذلك الغرض لكن فهمى فضل أن ينتظر حتى تكون تلك رغبتها هى فلا يبوء إسماعيل بالفشل فى كافة صوره لو رفض مطلبه من البداية ثم أضاف

-وطالما أنك أثرت هذا التساؤل فذلك يعنى موافقتك على مقابلته.

وسكتت فايزه ولم ترد وحضر إسماعيل فى اليوم التالى لمقابلتها وجلسا فى شرفة المنزل وقد انسحب فهمى محررا أخته من سطوته، وبدأ إسماعيل الحديث قائلا

-أعرف ما سببه طموح إنسان مثلى إليك من إزعاج لأسرتك لكننى ما كنت لأفصح عنه لولا تشجيع فهمى ومساندته لى وإن كان هذا لا يكفى كما قدرت.

قالت وهى تتحسس طريقها إليه

-ماذا تقصد؟

أجابها

-أحوال والدك جعلتنى أشك أن يقبل الاستماع لمطلبى، لولا ذلك لتقدمت إليه كما يقر العرف والتقاليد.

قالت

-لكنك لم تعرف رأيى أم أنك تصورت أننى مرغمة على قبول ما يقرره والدى؟

قال بعد تفكير

-الرفض من جانبك أفهمه وأقبله أما رفض والدك فلا يمكننى احتماله لأنه ليس موضوعيا بالمرة.

-لكنك لم تواجه والدى لتحكم هذا الحكم النهائى.

-لقد رفض حتى مقابلتى بهذا الخصوص.

-وأيضا لم نتحدث معا فى هذا الموضوع من قبل.

-رأيت أن أجنب كلينا الحرج.

وعادت تسأله

-لماذا يا إسماعيل تريد أن تتقدم لخطبتى؟

وكان صمته طويلا قبل أن يجيب

-أحب فى المرأة قوة النفس والاعتزاز بالذات والثقة، أن يكون لها رؤية خاصة لنفسها والأحياء من حولها ووجدت فيك كل ذلك، كما أننى فى حاجة لمن يؤازرنى فى كفاحى كما أنك أخت فهمى صديق عمرى وأقرب إنسان إلى نفسى.

وكانت تراقبه وهو يتكلم محاولة إقناع قلبها فلا تبوء بغير اقتناع العقل ولاحظ هو انشغالها فتململ فى جلسته حتى سألته قائلة

-ولماذا فى رأيك أقبل يدك؟

أجابها مدافعاً ومفسرا

-لأن لك إلى جوارى دورا فى الحياة يبنى ويعطى وليس دور المتفرج اللاهى..

لا زلت أذكر موضوع التعبير الذى كتبته لك وأنت صغيرة.. كتبته حينها متمثلا اياك قوة فعاله لا ساكنة وكان هذا ما أحلم به ولا زلت.

ثم أضاف وقد بدا عليه التأثر والقنوط

-القدر جعلك من طبقة غير طبقتى قد يسمح بينهما بالصداقة لكنه يحرم الزواج.

قالت تحاول التخفيف عنه

-أنت إنسان متفوق ولديك مقومات النجاح.. والطبقية انتهى عصرها.

ولم تعرف ماذا يمكنها أن تضيف مما يعطيه الأمل فسكتت وشعر إسماعيل بأن عليه الانصراف فاستأذن منها وغادر مجلسها وتركها يتخايل فى نفسها معنى غامض يتراقص ويتجمع فى كلمات ثم يتناثر ويتفرق وهى تحاول رؤيته فى وضوح دون جدوى لكن الذى كان واضحا لضميرها دون لبس أن ظلما فادحا قد أحاط بإنسان دون ذنب أو جريرة ارتكبها. ما ذنب إسماعيل أن له أهلا لا يرضى بهم أبوها؟ وما جريرته أنه ولد فقيرا ليواجه أبا غنيا متغطرسا؟ أما كانت تكفيه أخلاقه الطيبة وتعليمه العالى المتفوق؟ لا لم تكن تكفيه! فقد سارت الأحداث فى الاتجاه الذى رسمه صاحب القوة المطلقة وأقيم حفل خطوبة فايزه على عصمت عبد الجواد بفندق فلسطين بالاسكندرية فى ليلة من ليالى أغسطس من عام ١٩٧٧ حكى عنها الحاضر للغائب لعظم زينتها وفخامة اعدادها وبهاظة تكاليفها.

وبرغم واقعها الجديد الذى تسلط على حياتها وان ظلت تقاومه لم يلتبس على ضميرها ما أصاب إسماعيل من جرح وقدرت أن لها دورا فى محو ذلك الظلم عن نفسه وقررت أن تضطلع به. لم يؤثر

فيها زهو الخطوبة فى مبدأها وما توحيه من بهجة في نفوس الفتيات سواء بالهدايا أو بالنزهة والسهرات، ولم تؤثر فيها كلمات الحب ساقها عصمت لأذنيها معبرا عن خيال جمح به ثم تجسد فيها جمالا وإشراقا وشبابا لا يمكن لرجل أن يشاهده فلا يهتز له. ولم تر فايزه غير واقعا لابد أن تغيره، فكأنما تمثلت نفسها مكان إسماعيل وافترضت أن ما حدث له واقع بها فهالها ظلم أبيها وتجنيه. وذهبت لأمها تبثها حالها فهى ملجأها حين تستعصى عليها مسائلها ولم ترفض لها طلبا كيفما غلا أو استحال، واستمعت لها أمها فى هدوء ثم سألتها

-هل تحبينه يا فايزه؟ اصدقينى فهذا أمر هام فلا يكفى أن تشفقى عليه أو تحركك الشهامة نحوه كى أتدخل فى مجرى الأحداث لهذه الدرجة.

وسكتت فايزه وحيرها السؤال، فقد سألته لنفسها مرارا من قبل دون أن تصل إلى جواب صادق، وهى تخشى أن يصيبه الظلم مرة أخرى من نفسها إن قالت أنها لا تحبه ثم اكتشفت مع الأيام غير ذلك.. كما أنها إذا كانت لا تحبه حقيقة فهى على جميع الأحوال لا تحب عصمت خطيبها المفروض ولا تحب سواه، فكلهم إذن يستوون فى نظرها على أن إسماعيل يحبها لذاتها ولحياتها معه دور

مرتقب يعطيها قيمة وهدفا فهو أكثر حاجة إليها من غيره ممن ينتظرون منها ما يمكنهم الحصول عليه من فتيات كثيرات ولم لا يكون ما بنفسها وجه من وجوه الحب المحصور فى العقل والتقدير. وقررت أن تغامر بهذا الإحتمال فربما اهتدت به لسر نفسها، وأجابت أمها

-مهما يكن من أمر فأنا أفضل الزواج به عن عصمت وقد حاولت إقناع والدى دون جدوى.

ولم تجب الأم وظلت تتفرس فى وجه إبنتها التى قالت بعد أن أعياها صمت أمها

- نعم يا أمى أحبه إلى حد ما.

وقطعت الأم صمتها قائلة بعزم

-إذن دعى أمر والدك لى فأنا أعرف الطريق إليه.

للرجل مفاتيح كما للخزائن، مفاتيح للعقول ومفاتيح للقلوب، وربما ينظر إلى الرجل فيظن أنه بلا قلب أو أحيانا بلا عقل، والمسألة أنه لم يعثر على المفتاح الذى يناسبه، وبعض النساء لديهن القدرة على العثور على تلك المفاتيح خاصة ما تاه منها فى دواليب الزمن، عند بعضهن تلك القدرة أحيانا بالمعايشة وأحيانا

أخرى بنفاذ البصيرة، بعضهن الآخر لا يمتلك تلك القدرة وربما ألقى بالمفتاح أمامها فلا تفهم ما يعنيه.

وكان لأم فايزه تلك القدرة على عقل زوجها دون قلبه بحكم المعايشة وبعض البصيرة النافذة وقد رضيت لنفسها بهذا القدر من التأثير عند الضرورة واستسلمت لنصيبها من القلب على ضآلته.

فتشت فى ذاكرتها عن صديق ذى مكانة عاليه فى نفس زوجها وله تأثير كبير عليه، وأخذت تتوالى الصور فى مخيلتها فترفض هذا وتنظر إلى ذاك ثم تعيد النظر مرة ومرات حتى عثرت على ضالتها المنشودة وإحساسها بالثقة يتزايد كلما عرضته على مواصفات الشخصية المناسبة لمهمتها الخطيرة، وأخذت تردد فى نفسها، "إنه هو الأستاذ عبيد.. هو بعينه"

كانت معرفتهم بالأستاذ عبيد تمتد لزمن بعيد يزيد عن الثلاثين عاما منذ كان موظفا محاسبا صغيرا وإلى أن أصبح رئيسا للقطاع المالى والتجارى بإحدى شركات الغزل الكبيرة بالإسكندرية، وكانت علاقته بزوجها تزيد عن مجرد العشرة والصداقة إلى علاقة عمل ومصالح، فزوجها دائم الاحتياج لتلك الشركة الكبيرة لإمداد مصنعه بالغزل الخام وبعض المهارات الفنية التى لا يجدها فى السوق الحر بسهولة ، وكان للأستاذ عبيد دور هام فى تيسير هذه المسائل

له، لذا فقد كان على اتصال مستمر به ويهتم بمجاملته إلى أقصى حد، من جهة أخرى كانت أم فايزه ذات فضل على الأستاذ عبيد تمنى طوال السنين التى مضت أن يعادله، فقد كانت هى السبب فى زواجه الذى يرجع إليه كل ما يشعر به من استقرار وهناء فى حياته وما أخلفه إياه من ذرية صالحة. وهى تعلم أنه سيوافقها لما ستقترحه عليه ويساعدها على تنفيذه فاتصلت بزوجته كعادتها من الحين للحين وطلبت منها أن تزورهم فى وقت يتواجد فيه زوجها لأمر يهمها وتحدد الموعد وذهبت وفى ذهنها خطة واضحة لتحقيق هدفها. ولما عادت إلى بيتها استدعت ابنتها وقالت لها

-من المنتظر أن يمر بعض الوقت قبل أن يتحقق ما طلبتيه منى، دورك فى الوقت الحاضر أن يعلم والدك بخلافك المستمر مع عصمت وافتقار علاقتكما للانسجام وأن يصله ذلك عن طريق عصمت نفسه.

وفهمت فايزه أن أمها تمهد لأمر ما.

بعد حوالى شهر من هذا التاريخ استدعاها والدها وكان فى ثورة شديدة وقال لها

-فسرى لى معاملتك الغير لائقة لخطيبك وشكواه المريرة من تصرفاتك معه. لم تهمليه غير مبالية بمشاعره، لابد أن هناك سببا قويا

لوصول الأمر لهذا الحد. الرجل حكى لى ما يرتبه لك من بيت جميل يليق بك وعدّد ما قدمه لك من هدايا قيمة وما يحيطه بك من حب وتقدير دون أدنى استجابة منك أو لمحة مودة وعرفان.

وسكت قليلا ينتظر جوابها فقالت له

-كل ما يقوله صحيح يا والدى، إلا أنه يفعل ذلك للمباهاة والمفاخرة وليس لحبه كما يدعى وأنا لا أقبل أن يتعالى علىّ أحد هذا ما أنشأتنى عليه.. انه يفرض علىّ مشاعره دون أن يمهلنى للتقرب إليه كما أفضل، أنا فى الحقيقة لا أستطيع فهمه والتعامل معه بشروطه هو.. ذلك ليس فى طاقتى.

نظر إليها والدها بعمق وقال لها

-على الفتاة أن تحاول التقرب من خطيبها وفهمه ومحاولة إسعاده والترتيب لمستقبلها معه.. قلت له أنك فتاة حساسة وعليه أن يصبر معك قليلاً، لكننى أنتظر نفس الجهد منك. أرجو ألا تفسدى زواجك ببعض الأوهام فالمستقبل مهيّىء أمامك بالراحة والسعادة.

ووصل سمع أمها ما حدث فاتصلت تليفونيا بالأستاذ عبيد وأفادته بأن الوقت أصبح ملائما فأشار عليها بالهدوء والاطمئنان. وفى مساء اليوم التالى انفرد عبد الحميد بزوجته وأغلق عليهما باب مكتبه وقال لها

-أنا فى موقف حرج للغاية يا عزيزة ولا أعرف كيف أتصرف، وقد فاتحتك فى الموضوع ربما وجدت عندك نصيحة فأنت على علاقة وطيدة بعائلة الأستاذ عبيد.

وظلت عزيزة ساكنة تنتظر منه استكمال حديثه.. فقال

-تصورى أن الأستاذ عبيد طلب يد فايزه لابنه؟ هكذا قال.. ما أعرفه أن ابنه فى أمريكا فهل يعقل أن يخطب له فى غيابه؟ ثم أنه يعلم أن فايزه مخطوبة لعصمت.

سألته زوجته

-ماذا قال تفسيرا لهذا؟

أجابها وهو متحير

-اتهمنى بالتسرع فى الموافقة على خطبتها وأن فايزه لم تكن موافقة وأنهما حتى الآن غير متآلفين وهو يرى حرصا على سمعتنا وعلاقتنا بأسرة عبد الجواد أن ينتهى الأمر عند هذا الحد.

ثم أضاف بعد لحظات صمت وتفكير

-هل يمكن أن يكون عصمت اشتكى لأبيه من فايزه وطلبا من الأستاذ عبيد التدخل لفسخ الخطوبة بهذه السرعة، أم أن عبيد توصل لهذه النتيجة بما لمسه فى حديثهما معه. الغريب أننى حين سألته عن ابنه ومتى سيعود من الخارج وكيف يخطب له قبل عودته أجابنى

ضاحكا بأننى لا أعرف له سوى ولد واحد بينما له أولاد كثيرون جميعهم فى معزة الولد الغائب.

رمقته زوجته بنظرة فاحصة تتحسس حدة ذكائه هل هدته لشىء محدد ثم سألته تستكنه باطنه واتجاه فكره

-هل يعقل أن تفسخ خطوبة فايزه بهذا الشكل؟ إن هذا قد يهدد مصالحك مع عبد الجواد..

واطمأنت أنها مست منه اتجاها سليما لأنه أجابها :

-عبد الجواد أعقل من ذلك ما يحدث بين الصغار لا يؤثر على سياسته فى عمله. لكن للأستاذ عبيد ثقلا كبيرا فى هذه المسألة، فهو علاوة على أفضاله الكثيرة على لا يزال يؤثر بشكل كبير على حركتى بما يقدمه من مساعدة ويأبى أن يكون لها مقابل بأى شكل وهو عاطفى سيتأثر بشدة إذا لم يلق مطلبه الاهتمام الواجب ولكن كيف أوافقه إلى ما طلب؟ إننى فى مأزق شديد وأمامى بضع صفقات هامة أريد أن أتمها ستمهد السبيل لاقتراض مبلغ كبير من البنوك لشراء ماكينة حديثة للمصنع وفتح معرض خاص بنا والانتقال إلى مرحلة جديدة.

ثم سكت وساد صمت طويل ثم فاجأها بالسؤال التالى

-متى كانت آخر زياراتك لعائلة الأستاذ عبيد؟

أجابته بهدوء مصطنع

-من حوالى ثلاثة أسابيع أو أربعة لا أذكر بالتحديد.

-وبالطبع دار الحديث عن الأولاد وأحوالهم؟

لاذت بالصمت واعتبرته سؤالا لم يقصده صاحبه، وانتهى النقاش عند هذا الحد، وانتظرت عزيزة موعد زيارة عبيد لزوجها فى اليوم التالى وقد أعدت عدتها. كان عبد الحميد فى انتظار الزيارة بقلق غريب على نفسه لأنها تحمل ما لا يتوقعه أو يستطيع أن يحدد ملامحه وذلك من أصعب الأشياء على نفسه.

قال لصديقه وهو يصافحه ويصحبه لحجرة مكتبه

-كأننى أعرفك وأقابلك للمرة الأولى فى حياتى، ما هذه الألغاز يا أخى عبيد إننى لا أعهد فيك أسلوب التخفى والأسرار.

قال عبيد تسبقه ضحكته الخفيفة وكأنه لم يفهم مقصد مضيفه

-أولا مجلس إدارة الشركة بصدد الموافقة على مضاعفة حصتك من الغزل بناء على توصية منا كما طلبت، كما أننا ننظر باهتمام لاقتراحك عقد اتفاق سنوى مع الشركة.. الأهم من ذلك أنه نما إلى علمى عن طريق صديق لى بوزارة التجارة أن هناك تغييرا جذريا سوف يطرأ على السوق التجارى المصرى فى الفترة القادمة وأنه بهذا التغيير ينتظر جذب رؤوس أموال أجنبية إلى مصر وإذا صح هذا

الكلام فستجد فرصة عظيمة لإنشاء مصنع الملابس الجاهزة الذى كنت تحلم به، صديقى هذا سوف يفيدنا عند اللزوم بالمعلومات المطلوبة.

وكانت عينا عبد الحميد تلمعان وهو ينصت لجليسه بإكبار وقد تحول اهتمامه كله لموضوع حديثه ثم قال بعد أن سكت المتحدث

-فى الحقيقة يا عبيد حديثك أسرنى ولا يعرف المرء كيف يقاوم منطقك بأى شكل.

وتحول عبيد إلى موضوعه الأصلى مباشرة وقال

-لم أقصد طبعا أن أحيرك كما قلت، لكن الأمر كان لابد أن يتم بهذه الطريقة نظرا لمعرفتى السابقة بك، فالشاب الذى أطلب له يد فايزه أعتز به كإبنى تماما مهما كان رأيك مختلفا كما أنه يحبها، وأنا أعرف أنها لم توافق على عصمت لكنك أرغمتها، وحتى لا أطيل حيرتك فلتطلب من فهمى ابنك دعوة صديقه للحضور لمجلسنا فهو بانتظار إشارتك أو لتسمح لى أنا بدعوته.

ونهض نحو الباب وعبد الحميد من تلاحق الألغاز على ذهنه يتسرب إليه الضعف والارتباك وان هى إلا ثوانى معدودة حتى عاد عبيد وفى صحبته إسماعيل..

وقال لعبد الحميد وهو يبتسم

-أقدم لك هذا الشاب الناجح الذى يسعى ويكد فى سبيل مستقبل مرموق.

ومد إسماعيل يده فصافحها عبد الحميد بسرعة مترددا وعاد إلى أعماقه محاولا ترتيب ذهنه بسرعة تعينه على تقدير موقفه، فتلك عادته فى المواقف التى لا يكون سيدها، أن يحاول اتخاذ قراره فيها بأسرع ما يمكنه، فهو يعلم أن الزمن كلما طال عليه وهو لا يملك زمام الأمور ازداد ضعفا وابتعد أكثر عن دفة الأحداث.

إذن فهذا ما رتبته عزيزة ومكرت له، لقد استطاعت هذه المرة أن تنال منه ما تريد رغم أنفه، لقد عرفت كيف تلوى ذراعه وتجبره لإقرار ما تشاؤه وقد أحكمت التدبير حقا، فهو لن يفسد مشاريع مستقبل خطط له طوال العمر من أجل تحد فى الرأى، والبنت على كل حال لم تتآلف مع ابن عبد الجواد ودائمة التمرد والشكوى وإذا كانت تريد إسماعيل فعليها أن تتحمل نتيجة إصرارها.. لكنه لن يتركهم يفلتون بتدبيرهم لابد أن يرهقهم بثمن باهظ لمقاومتهم له وهو يعرف كيف ينفذ وعده، ولم تهدأ نفسه حتى وصل بها إلى موقف الانتقام لعزة نفسه وكرامته ممن دبروا ولكن بعد حين.

توجه بحديثه لعبيد وملامحه تجمد عن إفصاح ما بنفسه

-وكيف كان ملتقاك بذلك الابن العزيز؟ كم مضى على معرفتك به من زمن لتقدره حق قدره؟

أجابه عبيد

-الزمن يا صديقى ليس مقياسا لمعرفة الناس وتقديرهم سواء طال أم قصر، فكم من أناس نقضى أعمارنا معهم ولا نهتم بمعرفتهم ولا نستطيع تقديرهم.. يكفينى فى المقام الأول أنه صديق العمر لابنك فهمى والذى أعزه كإبنى تماما.. ثم إنى تحدثت معه حديثا مستفيضا فميزت فيه النباهة والطموح والأخلاق الطيبة ويكفى ذلك قى نظرى لأتمنى بنوته.. هل تقول أنك موافق أم ترفض مصاهرتى؟

قال عبد الحميد متسائلاً

-وماذا سنفعل بصاحبنا الحاج عبد الجواد؟

قال عبيد وقد لمح طلب صاحبه المتخفى فى سؤاله

-دعه لى سأطلعه على ما حدث وننهى الموقف فى هدوء.. المهندس إسماعيل ينتظر منك الموافقة.. لقد انتظرها طويلا

قال عبد الحميد محاولا أن يبدو موضوعيا

-أنا لم أرفضه حين فتحت له بيتى سنوات طوال دون تحفظ! لولا ظروف الحياة التى تخرج عن نطاقنا وسيطرتنا ما وصلنا إلى هذا الحد، هذه الظروف لم تتغير ولا يستطيع تغييرها أحد، فهى قدر

وتصاريف محتمة.. اسمعنى يا ابنى، لقد عشت أطول منك وخبرت الحياة أكثر وما آمنت به بعد تأمل وملاحظة أن هناك أشياء ثابتة فى الحياة لا يمكنك مقاومتها أو تغييرها والسبب أنها تخلق فى نفوسنا خلقا أو ربما نتوارثها عن أجدادنا، ويضيع عمرك هباء لو حاولت تغييرها، فقط حاول فيما يمكن أن يتغير وهو مظهر الإنسان وخارجه.

وسكت طويلا ثم نهض مستأذنا من ضيفه معتذرا بتعب مفاجئ وهو يقول لهما

-أرجو أن يتم الأمر بسرعة وأن يكون كتابا لا خطبة فقط حتى انتهى من هذه المسألة.

وعقد قران فايزه على إسماعيل بعد هذه الليلة بحوالى شهر فى حفل صغير بمنزلها على أن يتم الزواج بعد إنتهاء تعليمها أى بعد حوالى عشرة شهور.

وكان نصيب عزيزة من جراء مكرها وتدبيرها أن تزوج عليها عبد الحميد، وأما فهمى فقد حرمه من أية مساعدة مالية كان يرتب عليها تنفيذ مشروعاته مما دفعه للسفر إلى الإمارات، وأما نصيب فايزه فقد تركه والدها للغيب وهو على يقين أنه سيكفيها عصيانها له ورفضها نصحه.

وتأخر زواج فايزه عاما عن موعده المرتقب بسبب ارتباك طارىء على أحوال والدها المالية، فانتظرت بناء على رجائه بعض الوقت حتى تنفرج الأزمة، ولما ازدادت تلك الأزمة شدة وبدا أنه لا أمل فى حلها قررت فايزه أن تريح والدها من عبئها وأصرت على إتمام الزواج فى أضيق الحدود فاستجاب لها وهو حزين.

كان عبد الحميد قد استند إلى المعلومات التى أفاده بها عبيد والتى شاهد برهان صدقها فى تحولات السياسة الاقتصادية بمصر فعقد عدة صفقات كبيرة استدان بعقودها من البنوك طامحا لتجديد مصنعه وتوسعته، وخطط للانطلاق من ثم لإنشاء مصنع الملابس الجاهزة مع أحدى الشركات العالمية محققا حلمه الكبير. كان ذلك فى أواخر عام ١٩٧٧ وإذا بأهداف السياسة المرتقبة تختلط وتتعارض مع أحلامه وتفتح باب الاستيراد على مصراعيه لتهجم جحافل المنتجين من كل صنف وبلد بمنتجات رخيصة جيدة لهم فى إنتاجها سبق الخبرة بالماكينات الحديثة التى تتميز بإنتاج الجملة الغزير، واحتجب جهده عن طموح المنافسة وعبثا حاول التقاط أنفاسه التى قصرت فى هذا المضمار الرهيب. ولما تدهورت أحواله إلى حد الانهيار باع مصنعه وأرضه وغادر مصر إلى الجزائر يعمل بها خبيرا فى صناعة النسيج مصطحبا معه زوجته الثانية.

أما فايزه فقد بدأت رحلتها مع إسماعيل وثروة أبيها تتبدد وتتلاشى أمام بصرها فتنتظم فى ذهنها أشياء وتتبعثر أشياء أخرى دون أن تميز لها حكمة واضحة.

الفصل الثانى

روافد من المجهول

بعد عقد قرانها قالت فايزة لإسماعيل

-فى نفسى قوة كبيرة ستقف إلى جوارك ما حفظتنى وسأبذلها بلا تردد لنحقق حياة ناجحة معا.

ورد عليها

-لن أنسى ما حييت أنك فضلتنى على غيرى وهو بين يديك، وأنك اخترت أن تصنعى حياة ناجحة معى عن أن تقدم إليك ميسرة من سواى، وأعلم تماما أننى لست السبب الحقيقى فى اختيارك وإنما أنت السبب الأصلى فيه وأعدك ألا أدخر لحظة من عمرى فى سبيل تحقيق ظنك فى والتأكيد على ما يسعدك ولنقرأ الفاتحة.

وأعجبها لفتة الإيمان فيه وحمدت ربها واستقرت نفسها.

ولم تتأثر قبضتها على مسيرة حياتها مع إسماعيل بما جرى به الزمن على أحوال أبيها المالية والاجتماعية وما تبع ذلك من ابتعاده عن مصر وما سبقه من سفر أخيها أيضا إلى خارج البلاد اللهم إلا تأخر زواجها لما بعد تخرجها من الكلية بحوالى عام واضطرارها إزاء ما جد من ظروف لم تكن فى الحسبان أن تقيم مع والدتها فى بيتهم، فمن ناحية لم يكن مقبولا لها أن تترك أمها تعيش بمفردها فى هذا البيت الكبير ومن ناحية أهم ارتفاع أسعار الشقق الجنونى بما

لا يطيقه أى عاقل وبما يتعدى إمكانيات زوجها المالية فقبلا الأمر الواقع وعاشا معا فى البيت الكبير.

وقد بدأ تأثيرها يأخذ شكله الواضح المميز على الأحداث حين قرر فهمى أن يسافر إلى الإمارات للعمل وتدبير ما يحتاجه من مال إذ أقنع إسماعيل بالسفر معه والاستقالة من الجامعة على أن يعودا بعد عدة سنوات لينفذا ما خططا له منذ الصغر، بالرغم من إعجاب إسماعيل بالفكرة واقتناعه بها رفضتها فايزة بإصرار غريب وهو يعرضها عليها وواجهته بمنطق لم يعرفه ولم يفكر فيه، قالت له

-فهمى كان ينتظر مالا سهلا من أبيه والآن يبحث عن بديل يعوضه سريعا، أما أنت فتبحث عما هو أكثر من المال.. عن النجاح فى أهلك ومجتمعك، النجاح يخطو بك إلى الأمام وترتقى به فى اعتزاز وهو أمر لا يصنعه المال فقط. وأظن فهمى يختلف فى هذا عنك فقد مهد له أبوه الطريق.. أريدك أن تمهد لأبنائك الطريق والمال وحده لا يمهده يا إسماعيل.

قال لها مدافعا

-ننوى العمل هناك لبضع سنين ثم نعود لننجز نجاحا حقيقيا كما وصفت، والمال هو ما ينقصنا فى هذه المرحلة لكنه ليس هدفا فى حد ذاته.

قالت

-يمكننا سويا تدبير البداية، وفيما أسمع وأقرأ فمصر بدأت عصرا من الانفتاح وما أفهمه أن ذلك سيعنى احتكاكنا بالدول المتقدمة وبدء عصر جديد من نقل الحضارة لبلدنا ولابد أن لنا دورا فى هذا فما رأيك؟

أجابها

-لا أشعر بجدوى ما تقولينه يا فايزة فكم من أحاديث تروج، لكننى أوافقك فى أعماقى بأن بداية النجاح لابد أن تنشأ من هنا..

ثم أضاف

-قد يكون من الأصوب ألا نقطع فى الأمر الآن.. ربما بعد عام أو حتى يتضح موقفى من الكلية إن كنت سأوفق لبعثة الدكتوراه.

وكان قد مضى هذا العام حين تزوجا ولا زال دوره فى ترتيب البعثات متأخرا ودخله المادى محدودا وقوة الدفع الذاتية فى نفسه تقصر عن الإنطلاق به لتحقيق طموحاته، وبدأت فايزة تفكر فى طريقة لإخراجه من حالة ركوده وحمايته من تردده وقنوطه وظلت تدبر الأمر فى ذاتها وتقلب نواحيه وجوانبه وكلما طرأ عليها خاطر سفره لأخيها وأدته فى مهده بإصرار مدهش ورفض لا جدال فيه لا تدرى عمق أسبابه والأيام تمضى لا تحمل إليها جديدا، وكانت تتصفح

إحدى المجلات العلمية الأجنبية التى تأتى لزوجها أو يستعيرها من بعض زملائه، وفجأة انتبهت لانشغالها بملاحظة بعض الإعلانات عن أجهزة علمية تستخدم فى قياس سمك الغلايات وتحديد نسب التآكل فيها لتغييرها عند الضرورة، وكانت تعرف أن دراسة الماجستير التى أداها إسماعيل تخصصت فى دراسة تطوير شىء ما فى الغلاية لا تذكره بدقة فى مصطلحات المهندسين فسألته وكان منكبا على بعض عمله

-هل يمكنك أن تفسر لى قيمة هذه الأجهزة الفعلية.. ثمن الواحد منها فى مصنعه أربعة آلاف دولار

-أخذ منها المجلة وتفحص ما تقصده وأجابها

-ثمن هذا الجهاز بملحقاته كاملة يصل إلى عشرة آلاف جنيه، أما قيمته فخطيرة جدا ولكن فى الدول المتقدمة التى تعنى بصيانة مصانعها ومحطات القوى فيها، فنظرا لأن المياه تسير داخل مواسير الغلاية وهى تعد بالمئات فسطحها الداخلى معرض للتآكل المستمر ويتحتم تغييرها بعد زمن تفقد فيه صلاحيتها وتعرض الغلاية للتلف وهى عملية مكلفة مالا ووقتا إذا تمت جملة واحدة، وهذا الجهاز يساعد على تحديد نسبة التآكل بدقة داخل المواسير وبسرعة فائقة

وبناء على نتائجه تستبدل فقط المواسير التى تتعدى مستوى الآمان مما يوفر الوقت والمال.

وسألته بإصرار

-ألم تكن لدراستك صلة بهذا الموضوع

أجابها

-نعم لهذا استطعت إجابتك، فتلك النظم حديثة ولا يلم بها فى الدول النامية إلا الدارسون.

قالت وقد تذكرت شيئا خطر ببالها فجأة

-أذكر أن مصنع والدى كان به غلاية وكان دائم الشكوى منها ويتمنى استبدالها، ولما تحققت أمنيته اضطر لبيع مصنعه..

قاطعها إسماعيل قبل أن تسترسل فى الماضى

-معظم مصانع الغزل والنسيج والكيماويات وغيرها فيها غلايات علاوة على محطات إنتاج الكهرباء.

قالت فايزة وكأن شيئا ما لا تعرفه يتحرك فى أعماقها ويوجه أفكارها لاتجاه معين دون أن تدرى

-تصور يا إسماعيل لو أن أحدا اشترى هذا الجهاز وأجره للشركات لاستخدامه فى صيانة غلاياتها سيكون له السبق وما يتبعه من ربح وشهرة.

أجابها وقد عاد يركز فيما كان يشغله قبل حديثها

-وهل تظنى أن الشركات التى فى حلجة لمثل هذه الأجهزة تعجز عن شرائها؟ المشكلة تكمن فى الخبرة المطلوبة لتشغيله والاستفادة به إلى جانب وجود العقلية الإدارية المسؤولة التى تقدر خطورة الإستفادة بذلك التقدم.. حين تضطر شركة ما لأداء نوع من تلك الاختبارات فإنها تعهد به لشركة أجنبية وتريح نفسها.

ثم أضاف بعد لحظات

-عموما لا توجد فى مصر معاهد أو مدارس تدرب على إستخدام تلك الأجهزة الهامة، لا يوجد سوى فى الخارج.

ولم تسكت فايزة ولم تقتنع بهذا الحد من الحوار فاستمرت تسأل

-وكم الوقت المطلوب للتمرين على مثل تلك الأجهزة.

نظر إليها وكأنه يستعد لإجابة آخر أسئلتها

-أسبوعين أو ثلاثة، ربما شهر للمحاضرات والامتحان لنوع واحد منها، أما الخبرة فشهور تصل إلى سنة فى بعض الأمثلة.

وتخللهما الصمت، كل فى عالمه، هو يعاود مطالعة ما بين يديه ليصل بحبل أفكاره ما انقطع بحديثها وهى مستسلمة لخيالها وما داعبها به من أحلام اليقظة.

وبعد حوالى أسبوع من هذا الحديث أتاها إسماعيل مهموما بعض الشىء ولما سألته عن السبب قال لها

-غداً آخر موعد لترشيحات منح السلام لأمريكا ولم أقرر بعد موقفى.

سألته باستغراب

-وما سبب ترددك؟

أجابها

-المنحة سنة واحدة فقط، وهى لا تكفى طبعا لدراسة الدكتوراه، إذا قبلتها فوتت على ما قد يتحقق من فرص أثناء غيابى على أن الانتظار للبعثة لا يحمل أملا مؤكدا فى المستقبل القريب. وسكتت فايزة وقد شعرت بحيرته ثم هبت من جلستها واقفة وكأنما تلبى نداء الأحلام وقالت له

-يمكنك خلال هذه السنة أن تدرس تلك الاختبارات المتقدمة التى تحدثنا عنها وتحصل على شهادة فيها وربما أمكنك شراء بعض الأجهزة من هناك وإحضارها معك.

نظر إليها مندهشا وهو يحاول أن يتذكر أية أجهزة تعنى وأية اختبارات تقصد ثم سألها

- لست أفهم مقصدك.. هل سأقوم بتدريس هذا النوع من التطبيقات العلمية للطلبة؟ أية فائدة نجنيها من وراء ذلك؟

قالت بوضوح وكأنها تقرأ من كتاب مفتوح

- بل ستقوم بإنشاء شركة مجال عملها هذه الاختبارات وتكون أنت أول خبرائها.

سألها وهو ينظر إليها متعجبا

- ومن أين لنا بعملائها؟

أجابته

- لابد أن هناك كثيرين ينتظروننا، أؤكد لك أننا سوف ننجح، إننى أشعر بذلك يقينا وباطمئنان غريب كلما فكرت فيه، لا تتهمنى بالعبث، لكن ذلك الخاطر ظل يتردد فى نفسى منذ حديثنا ولا أجد له مخرجا للواقع حتى جئت اليوم لتدلنى عليه دون أن تدرى، تلك فرصتنا يا إسماعيل صدقنى.

وكان أعظم ما أثار دهشة إسماعيل تلك الثقة الغريبة التى تتحدث بها وكأنها تصف ماضيا تحقق وتأكدت آثاره وليس مستقبلا بعيدا لا تملك منه غير أحلام يقظتها وذلك الذى وصفته بشعور الاطمئنان. ولم يفهم مدلول ذلك فى نفسها سوى أن المرء يصدق ما يتمناه إذا لاح له احتمال حدوثه فيظنه قريبا منه لفرط رغبته فيه، فهى

دفعة شعور لا أساس لها من عقل أو منطق، وبدا أنها حدست ما دار فى نفسه وهو ينظر إليها والصمت يشمله فطفقت تقرر له واقعها كما تراه بوحى العقل والمنطق.. قالت

-سوف تسافر أنت بإذن الله وسأقوم أنا بتأسيس مكتب لمزاولة نشاطك المقترح سيكون مقره هنا بمنزلنا وحين تأتى بالسلامة ستجد العملاء بانتظارك متى يمكنك السفر؟

أجابها

-خلال هذا الشهر..

ثم سألها محاولا اللحاق بها

-لكن هناك إحتمال بحملك فهل تظنين الوقت مناسبا لسفرى؟

فأجابته بقولها مؤكدة له أنه لن يستطيع اللحاق بها أبدا

-حملى تأكد اليوم ليتأكد بذلك حلمى الذى نبدأ تحقيقه بسفرك فتوكل على الله.

ولم يعرف إسماعيل كيف يجيب فسكت وظل ينظر إليها وهى تبتسم له فى ثقة حتى نهضت وعانقته وكأنما تعلمه كيف يجيب.

واستطاعت فايزة بالرغم من أعباء حملها المتزايدة أن تعد مكتبا خاصا لزوجها يمارس من خلاله أعماله، سواء كان إعدادا قانونيا شكليا أو من ناحية التأثيث، وقد واجهتها بعض الصعوبات القانونية

لفصل جزء من مسكنهم ليصلح مقرا لمكتب خاص لكنها استطاعت بالصبر والحيلة أن تستخرج كافة المستندات المطلوبة، وكان زوجها يراسلها من أمريكا ويحادثها كلما أمكنه، وكانت المشكلة التى لاحت لهما بمرور الوقت أن المال الذى سيتوفر له من رحلته يكاد يكفى لشراء الأجهزة المطلوبة وأن المغامرة فى هذا المضمار أكبر وأوسع مما ظنا، لكنها طمأنته بأنها ستجد حلا وما عليه سوى الاستفادة من كل وقت هناك. ولم تكن تعرف حلا وهى تطمئنه لكن عزيمتها لتحقيق ما راود خيالها واهتزت له نفسها نهضت تصد عنهما أى شك أو تردد.

وكانت قد اقتربت من نهاية حملها فبدأت تستعد لاستقبال مولودها وانشغلت له بكل كيانها، ورزقت بطفلة جميلة بعد ولادة سهلة وأسمتها "أمل" وفى خيالها أملها المنطلق لمستقبل مشرق، وكان لا يزال أمام إسماعيل عدة أشهر حتى تحين عودته فكتبت له تبشره وتطلب إليه بذل كل الجهد وقد زادت الأسباب سببا رائعا..

ومرت تلك الشهور القليلة وعاد إسماعيل إلى مصر لتستقبله فايزة بفرحة هائلة وقد أدهشه ما فعلته فى غيابه وهى تقص عليه ثم تختتم حديثها قائلة

-فكل شىء جاهز الآن للعمل الحر المنطلق بلا قيود.

وتساءل قائلاً

-ولو تعارض ذلك مع التزاماتى نحو الكلية؟

أجابته مؤكدة إحاطتها بالأمر

-تعمدت تسجيل الشركة بإسمى تحسبا لهذا الموقف ولو حدث تعارض فعلى يمكنك أن تستقيل.

قال إسماعيل

-أنت تراهنين بكل شىء يا فايزة، لقد أنفقت كل ما حصلت عليه فى شراء الأجهزة وتخليصها من الجمارك.. ومع مولد أمل يتضاعف رهانك.

فقالت وهى تبتسم

-أنا لا أراهن بشىء، كل ما هو مطلوب منك الآن أن تقابل الأستاذ عبيد وسوف يرشح لك عدة شركات تبدأ بالإتصال بها. حين شرحت له نشاط شركتنا أظهر اهتمامه ووعد بالمساعدة.

وبدا عليه بعض القلق وهو يسألها

-وكم تكلفنا مساعدته؟ نحن لا نملك شيئا نقدمه لأحد ولا تظنى أن المساعدة تقدم بلا مقابل.

نظرت إليه وقد اختفت الابتسامة من وجهها وتركت مكانها علامة انشغال كتلك التى تتبدى فى وجوه رجال الأعمال.. ثم قالت

- لقد اتفقت معه أن يكون مستشارنا فى النواحى التجارية وأن نقيم استشارته بما تحققه من نتائج.

- وهل قبل ذلك فعلا؟

- نعم وقال أنه يقرأ فى وجهى ما يذكره بجرأة والدى وحماسه.. من يدرى ربما نحقق ما يفوق أحلامه.

وأخذ إسماعيل يتصل بالشركات التى رشحها عبيد وغيرها دون أن يصل لإجابة محددة على ما اقترحه عليهم من تطبيق نظم حديثة فى الصيانة، ومرت شهور ستة منذ عودته من أمريكا دون جدوى حتى بدأ اليأس يراوده والندم على إنفاقه كل ما كان بحوزته فى شراء أجهزة ملقاة بمنزله لا جدوى منها وبدأ يفكر فى إيجاد وسيلة لردها أو بيعها للجامعة، وسألته فايزة

- لم تحصر نطاق التسويق فى مدينتى القاهرة والإسكندرية وفقط مع شركات القطاع العام؟ حاول فى مدن أخرى مع شركات خاصة، البلد مليئة بكثير من الشركات الأجنبية تقوم بتنفيذ مشروعات وأعمال ضخمة تتحدث عنها الصحف كما لا تحصر أعمالنا فى مجال واحد..

قاطعها بلسان حاله

-أما كان أوفق لو حصلت على وكالة إحدى الشركات الأمريكية وسوقت لها منتجاتها فى مصر كما يفعل الكثيرون، كان لى أستاذ فى الكلية يردد دائما أن الهندسة لا تؤكل عيشا فى هذا البلد.. لن نستشير عبيد مرة أخرى.

ردت بإصرار

-المشاريع الكبرى معروفة يا إسماعيل ويمكنك الاستدلال عليها بسهولة.. الأجانب سيستمعون لك فيما تعرضه ولو فشل هذا الإتجاه سنفكر فى شىء جديد.

قال لها

-سوف أحاول لكننى لا أفهم إصرارك؟ وإذا لم أوفق لشىء محدد خلال شهرين على الأكثر سأرتب نفسى للحاق بفهمى فى الإمارات.

قالت بعناد

-النجاح ليس سهلا متاحا لكل من تمناه، وسوف ننجح بإذن الله إذا بذلنا الجهد المطلوب.

وبدأ إسماعيل يرتب لإجراء اتصالات وزيارات للمشاريع الكبرى، ووقع اختياره على محطات إنتاج القوى الكهربائية لقربها من مجال تخصصه وخبرته التى اكتسبها أثناء سفره، وعلم أن المحطات التى تنشأ فى الوقت الحالى خارج القاهرة هى محطة بأبى سلطان قرب

الإسماعيلية ومحطة أخرى بعتاقة قرب السويس، وبينما هو يتحسس طريقه بين مكاتب إدارة مشروع محطة أبى سلطان إذا به يصطدم بأحد زملاء الدراسة الذى اندفع نحوه بحرارة الزمالة القديمة ثم اصطحبه إلى مكتبه حيث جلسا يتحدثان كل منهما يروى لصاحبه ما ضمنته أيامه السالفة. وحين أدرك صاحبه سبب زيارته للمشروع وفهم النشاط الذى يحاول تسويقه قال له بحماس

-أنا متأكد من أن تلك الاختبارات التى تستطيع أداءها كانت جزءا من العقد الذى أبرمناه عن هيئة الكهرباء مع الشركة الإيطالية المنفذة للمشروع، والسؤال هل تم تحديد المكتب الذى ستعينه الشركة الإيطالية لتنفيذ هذا الجزء من العقد، اسمع! تعال معى لمدير المشروع نعرض عليه إمكانياتك، وهو رجل إيطالى بشوش يقابلنى دائما بالتحية.

قال إسماعيل ملاحظا

-لابد أن يفعل وهو يعلم أنك تمثل العميل لشركته

ضحك زميله ضحكة ذات مغزى وهو يأخذه من يده فى إتجاه مكاتب الشركة الإيطالية، قال إسماعيل وهو يحكى تفاصيل ما حدث لفايزة والحماس يتزايد فى نبرته

-قابلنا الخواجة بترحاب وبدا عليه الإهتمام وهو ينصت لما أعرضه عليه خاصة حين فهم من حديثى أننى أديت تلك الاختبارات فى أمريكا وحصلت على شهادة من هناك. ثم طلب منى مقابلته مساء فى الإسماعيلية..

قاطعته فايزة، وقد بدأ صبرها ينفذ

-أتمنى أن يكون ما يوحى به حماسك حقيقيا.

أجابها

-نعم يا فايزة حقيقى، فقد أفادنى الرجل بأنه لم يكن فى حسبانهم وجود مثل هذا النوع من الخبرة فى مصر فتعاقدوا مع مكتب إيطالى لتنفيذ المطلوب للوحدة الأولى فى المحطة، لكنه أكد لى استعداده للتفاوض معى فيما يختص بالوحدتين الأخريين بعد ستة أشهر.

قالت فايزة

-هذا كل ما وصلت إليه معه

أجابها

-لا، لقد أعطانى اسم مدير مشروع أصغر لهم يتم تنفيذه بالمحمودية وأشار على بمقابلته لأنه يعلم بحاجته الفورية لخدماتنا ووعدنى بتزكية.

سألته فايزة بعد صمت

-هكذا دون أن يعرفك أو يجربك وبلا مقابل.

-قلت لك أنه عرف بمؤهلاتى وقدراتى لما أمضيته من وقت فى أمريكا.

قاطعته قائلة وعيناها تلمعان بذكاء فطرى غريب

-هذا الرجل لمح صداقتك للمهندس الذى قدمك له ولابد أنه سينتظر منه مقابلا لهذه التزكية، ما رأيك لو تحدثت معه بالتليفون ودعوته على العشاء، كان والدى يعقد صفقات كثيرة بهذه الطريقة.

ووجد إسماعيل الفرصة مهيأة له بمشروع المحمودية لكنه ووجه بشرط ضرورى لدى الشركة الإيطالية قبل أن تمنحه عقدا وهو خطاب ضمان بألف دولار قيمة عشرة فى المائة من حجم الأعمال المنتظر فوعدهم بإحضاره خلال أسبوع وفى تصوره أن يلجأ إلى فهمى لمساعدته.

وبالرغم من سعادة فايزة باقتراب تحقيق الأمل بعد كفاحهما الطويل وأن الأمر لن يتعدى مكالمة تليفونية لأخيها، إلا أنها أصرت أصرارا عجيبا ألا يلجأ إسماعيل لفهمى بهذا الطلب لأنه سيطوق عنقه بجميل لا ينفك طول عمره، وحين لا حظ إسماعيل مندهشا أن

هذا الطوق حول عنقه مسبقا بمساعدته له فى زواجه بها رفضت فايزة هذه الملاحظة قائلة

-أنا لا أنكر دور أخى فى زواجنا لكن القرار كان لى، ولابد أن يظل قرارنا فى بدء أعمالنا معتمدا على قدراتنا نحن، ولا تندهش لأننى اقترضت من فهمى من قبل أثناء سفرك فهذا من حقى عليه كأخته، أما اقتراضك منه لمساندتك فى مثل هذا الأمر فهو يحرمك أنت من عرق الكفاح ودعنا نفكر فى طريقة أخرى..

ووجدت مخرجا لهما بدعوة وجهها إسماعيل لمدير المشروع لمقابلتهما مساء فى فندق شيراتون المنتزة للاتفاق على كل شىء ثم اقترحت عليه فيما يختص بخطاب الضمان أن يحتجز قيمته المالية من أول مطالبة مالية لهما نظرا لتعذر حصولهما على النقد الأجنبى ووافق الرجل وهى تعرض عليه استضافة زوجته فى الإسكندرية فى أى وقت تحدده، ورحب ببدء العمل.

وبدأ نشاط الشركة وأخذ يتسع ويتزايد مما شجع إسماعيل بل ودفعه لتقديم استقالته من الجامعة والتفرغ لأعماله الحرة، فالعمل لم يعد قاصرا على موقع واحد أو موقعين يتابعهما وفايزة تنظم وتتابع الأعمال المكتبية بل اتسعت أعمال الشركة إلى مواقع عدة وبدأ ينتظم فيها عدد من المهندسين آخذ فى الازدياد، وتأسس

للشركة مقر مستقل بشقة واسعة فى وسط البلد وأخذت تتكامل فيه كافة وسائل الإتصال.

وكانت فايزة فى هذه الأثناء قد أنجبت بنتا أخرى أسمتها هبة، ولم يلهها شيء عن متابعة زوجها والتفكير المتصل فى توسيع نشاطه وإظهار نجاحه الذى فاق كل توقع. فعلى مدى أربع سنوات كان قد حقق حجم أعمال زاد عن المليون جنيه أعانه على ذلك عدم وجود منافس محلى للشركة. وبدأ يفكر فى إنشاء فرع تجارى لتسويق الأجهزة على مستوى مصر، ثم تطلع للتعاون مع فهمى بالبحث عن كفيل فى الإمارات لنقل نشاطه إلى هناك وزادت أراضى البناء التى امتلكها والعقارات التى طفق ينشئها أو يؤسس لإنشائها.

لكن أمرا ما لم تلحظه فايزة طوال عشر سنوات من زواجهما، ربما لانشغالها بهدف وضعته نصب عينيها وظلت تؤكد واقعه كل يوم وأهملت ما هو دونه، وربما لأنه من أمور لم تحرك فضولها أو اهتمامها منذ البداية أو ربما لأنها لم تنتبه إليه فى وقت مناسب بدرجة كافية. وكانت الصدفة البحتة هى السبب أن تفتحت عيناها، وتمنت بعدها لو ظلت بجهلها وانشغالها فقد زلزلها ما رأت زلزالا عنيفا من الأعماق التى لم تسكن بعدها أبدا.

فقد ذهبت أحد الأيام لزيارة أمها فى بيتهم القديم الذى أصرت الأم على استمرار إقامتها فيه وكان ذلك نهارا حين يكون إسماعيل منهمكا فى أعمال شركته، ولما كانت لا تزال تحتفظ بمفتاح البيت فقد فتحت ودخلت وهى تظن لفرط هدوء البيت- أن أمها نائمة أو غائبة، ولكن أين إحسان الشغالة؟ ربما ذهبت إلى السوق. وتوجهت إلى حجرة نوم والدتها تتأكد من ظنونها فأحست فى طريقها بهمهمة وحركة فى حجرة مجاورة ثم صرخة ألم غريبة أدهشها أن تصدر فى هذا البيت فاندفعت تفتح الباب المفضى إليها لتفاجأ بإسماعيل ظهره إلى الباب يخفى أمامه شخصا آخر منحنيا فوق أحد الكراسى وكلاهما عاريان، وما أن استدار كلاهما لحركة الباب المفاجئة حتى تبينت فايزة وجه الشغالة ووجه إسماعيل الذى امتقع كالموت من هول المفاجأة، وقد أعطى تسمر فايزة وجمودها وحيرتها فى فهم ما رأته للوهلة الأولى وقتا كافيا للشغالة لكى تحمل ملابسها وتفر هاربة وهى تولول وتندب حظها، بينما لم يجد إسماعيل ما يفعله سوى الجلوس على أحد الكراسى وهو يخفى وجهه بين يديه ويجهش بالبكاء.. ولم تجبها أمها حين صرخت بها فايزة ولما اندفعت لحجرتها وجدتها خالية، وارتمت فوق سريرها وقد شحب

وجهها وأخذتها رعشة شديدة وشعور بالبرودة يصك أسنانها ولا يزال عقلها يطارد أى معنى لما رأته منذ قليل.

ولم تعرف كم مضى عليها من وقت فى هذه الحالة حتى انتبهت على صوت الباب الخارجى يغلق ووقع أقدام تتحرك داخل البيت فنهضت تصلح من هيأتها وتستعد لملاقاة أمها التى لاحظتها بدهشة وهى تسألها

-كم طال انتظارك؟ ما سبب الشحوب البادى فى عينيك؟ هل أنت مريضة أو علامات حمل جديد؟

وابتسمت فايزة ساخرة هازئة وطمأنت أمها قدر مستطاعها وقد قررت فى نفسها ألا تبوح لها بما حدث حتى تنتهى فيه إلى قرار. واستقلت سيارتها فى طريقها إلى منزلها الذى وصلت إليه بعد ثلاث ساعات كاملة بالرغم من أنها تستطيع الوصول إليه فى ربع ساعة فقط. وأمضت هذا الوقت منطلقة فى شوارع المدينة مخترقة كل ما يقابلها من طرق وذهنها يجرب وينطلق فى كل ما يعن له من سبل وحيل حتى اتفق كل كيانها فى النهاية أن تتوجه لمنزلها رغم كل شىء.

ولم تكن حركة ذهنها فى هذا الإتجاه بسهولة حركة سيارتها التى قطعت كورنيش الإسكندرية ذهابا وإيابا عدة مرات، فقد بدأ ذهنها

يتحرك منذ بدأ زواجها فلاحظت ببعض الأسى أنها افتقدت فى بدايته العاطفة المشبوبة والحب القوى القاهر الذى تجفل عن التعبير عنه فى بعض الأحيان مظاهر الحياة العادية، ولم يغب عن فكرها أنها قضت على نفسها هذا القضاء حين اختارت بالعقل ودبرت بالحيلة لتحقيق إرادتها، لكن الشعور بالأسى تبدد حين لاحظت أنه لم يكن متاحا لها تعبير الحياة عن حب حقيقى فتنازلت عنه وأهملته عازفة.. لهذا كان اختيارها تعبير الإرادة وعدم الاستسلام لقضاء الآخرين. ثم تحرك ذهنها قليلا إلى الأمام فلاحظت أن علاقتها الزوجية اختلفت معطياتها بعد عودة إسماعيل من أمريكا فأصبح همها نجاح الشركة وزيادة توسعاتها وأن ذلك لم يسبب تبرما من زوجها أو شكوى ولو مازحة، بل أخذ اهتمامه بها كزوجة يضعف وشعوره نحوها كامرأة يخبو وإن كانت قد أنجبت منه مرة ثانية، ذلك بالرغم من نضجها كأنثى وظهور جمالها وفتنته وهى تعبر سنواتها الثلاثين، وقبل أن تسترسل من ملاحظتها إلى اتهام نفسها بإهماله تذكرت كم كانت تهتم فى بعض الأحيان بإغرائه بالملابس الكاشفة المثيرة أو بالحديث المحرك للعاطفة فتبوء منه بالفتور والخذلان، وأوشك المشهد الغريب الذى انطبع فى عينيها منذ ساعات أن يطغى على بصيرتها فبدأت تعاودها الرعشة، لكنها قبضت على

أعصابها بقوة مذهلة وسألت نفسها ماذا ستفعل؟ وتحركت من وراء السؤال أسئلة كثيرة اندفعت فى محاولة لتشكيل إجابة أو التأثير فيها. هل ستخبر أهلها وتطلب الإنفصال عنه، وماذا سيكون موقفها بينهم وهى التى أصرت على الزواج به؟ وتذكرت ما حاول والدها أن يفسره لها من مبادئ أصول العائلات وأين سينتهى المطاف بابنتيها وأى ذنب اقترفتاه لتحتملا خسة أبيهما، وتلك الشركة الناجحة التى تأسست بفكرها وإصرارها وتفوقت وازدهرت بحكمتها ورجحان تقديرها، إنها تنظر إليها دائما نظرتها لإبنتيها، هى حقا لا زالت تملكها بحكم عقد تأسيسها، لكن الملكية القانونية هنا آخر ما تفكر فيه، أية هزة ستتعرض لها الشركة وقد ارتبطت الآن برجال أقوياء وخطت فى مجالات التجارة خطوات هامة تؤثر عليها أية فضيحة اجتماعية تصيب أصحابها؟ وخطر ببالها أن تستعين برأى أحد الرجال ممن تثق فى نصحهم ورشادهم كعبيد أو تتصل بفهمى وترجوه الحضور فورا، لكنها لم تطمئن تماما لهذا الخاطر، ثم قررت مدفوعة بلا وعيها أن خطوتها التالية لابد أن تكون بمواجهة زوجها، ربما كان لديه من تفسير ما حدث ما لم يخطر على بالها مما يدفع عنه العار، أو ربما يبرهن لها أن ما رأته محض ظنون وأوهام،

وكانت تلك شاردة أمل تمسكت بها فربما تتبدد من رأسها تلك الأخيلة بمجرد أن تعبر عتبة منزلها.

وما أن أغلقت الباب من خلفها وتقدمت خطوة نحو قاعة الجلوس حتى رأته مقبلا نحوها منكس الرأس والذل يعرقل خطوته، وفجأة ارتمى عند قدمها يستجديها الغفران، ووقفت تنظر إليه دون أن تهتز مشاعرها بأى معنى وقالت له وقد حكم عقلها كل كيانها

-ليس بتلك الطريقة تقدم اعتذارا، انهض يا إسماعيل واعترف كيف أمكنك إخفاء هذا الجانب من كيانك طوال تلك السنين، الخيانة لا تنشأ فى كيان الإنسان بغتة. أجابها بمهانة

-لن أنهض حتى تسمحى لى بالدفاع وتتلمسى لى العذر.

وعادت تردد قولها

-انهض يا إسماعيل دعنى أراك وأرى نفسى من جديد.

ثم استأنفت الحديث وقد استقرا فى حجرة الجلوس

-إنى مصغية لكل ما يمكنك أن تخرجه من أقاويل.

وسكت إسماعيل طويلا قبل أن يقول

-أنا رجل يا فايزة.. أريد أن أشعر فى بعض الأحيان بهذه الحقيقة التى حرمت منها طول الوقت.. لقد أخطأت التعبير لكن اليأس هو الذى دفعنى.

وحاول أن يستحث منها استجابة ما فلم ينطق وجهها بشيء فاستمر يقول

-كل رجل فى حاجة لامرأة تذعن لارادته مهما كانت ضعيفة وأنت لم تمنحى لى هذه التجربة ربما لأنك تحملين فى أعماقك ارادة رجل.. إننى لا أنكر فضلك فى كل ما حققناه من نجاح وثراء لكن غلبة ارادتك كانت قدرية ودائمة.

وتوقف قليلا عن الكلام ثم أضاف

-لم يكن حرصك على نجاحى وافتخارك به سوى دفاع عن اختيارك لى من البداية وتأكيد لجدوى إصرارك عليه، ليس فيه أدنى قدر من الحب لذاتى أو الاعتراف بأن لى وجودا يستقل عنك، لم أشعر معك بقوتى أو لو أن لى قوة على الإطلاق. لكننى جد آسف ومتألم لانزلاقى إلى أضعف صور التعبير عن هذه القوة المفتقدة وإذعان الإرادة المنشود..

وماتت بقية كلماته على شفتيه أو فى أذنيها فلم تميز لهما معنى أو وجودا، ثم نظرت إليه وظلت تراجع نفسها فيما عزمت عليه ثم قالت بعد أن طال الصمت وهى تنهض من مجلسها

-سوف أنتقل للعيش مع أمى وكذلك أمل وهبة وحين أصل لقرار ستعلم به.

سألها متخوفا

-لم لا نحتفظ بالأمر فيما بيننا؟

نظرت إليه دون أن تفوه بكلمة واحدة وهى تردد فى نفسها "بيننا أى بيننا؟" وأصرت أن تنتقل لمنزل والدتها تلك الليلة مع ابنتيها وألا يصحبها إلى هناك ووضعت حقائب ملابسهم فى سيارتها وانطلقت مبتعدة وهى لا تشعر بالدمع الغزير المندفق فى مقلتيها. وقصت على أمها ما حدث والسيدة فى ذهول لا تصدق أذنيها وأن بيتها كان مسرحا لجريمة دون أن تدرى ثم أنهت فايزة قصتها قائلة مفسرة

-لم أخبرك وقتها فقد كنت مرتبكة مشوشة وحاولت تدبر الأمر، كنت أفكر فى ابنتى ومستقبلهما.. لكننى لم أحتمل وجوده معى فى بيت واحد، أرجوك أن تبقى ما حدث سرا حتى أستقر لقرار فأنا الخاسرة لو شاع الأمر وسيبرأ الرجل بأسهل الأعذار.

وحاولت أمها تهدئتها قائلة

-لا تخشى شيئا وعلى إقناع أمل وهبة بالموقف الجديد بحجة مناسبة.

واكتشفت فايزة بعد مرور بعض الوقت أنها حامل مما دفعها لإعادة النظر فى قرار كانت توشك اتخاذه بطلب الطلاق، فقد أدى

هذا الخبر لتعقيد المسألة مما قربها إلى الحل فأصبح همها إيجاد وسيلة ما للعودة لحياتها السابقة، وجربت فى نفسها أن تغفر لزوجها زلته ولم تعرف كيف تهادن كبرياء المرأة فيها أو تنسى ما شاهدته بعينيها ولم يكن وشاية أو خبرا نقلته الألسن.. وكانت تلك لحظة نادرة فى عمرها انتظرت فيها لإرادتها سببا من إرادة أخرى توجه حركتها وتبرر لها ما قد يجيش فيها من مشاعر متناقضة، وانتظرت دون أن تدرى وظلت تنتظر وتؤخر قرارها وهى موقنة أن للقدر وعده وموعده.. إنها حين تتذكر تلك اللحظة وتفتش فى تفصيلاتها ترفع يديها لله حمدا أن وهبها شيئا من الإيمان ترتكن إليه حين تترقب ما لا تعرفه.. شىء من الإيمان يكفى ذلك الوجود المجهول.

فى يوم أربعاء تحفظه جيدا فتحت الباب الخارجى اثر رنين الجرس فظهر من خلفه رجل يبدو فى الثلاثين من عمره ملامحه هادئة وفى نفس الوقت قوية آسرة تبعث فيمن ينظر إليه الإحترام حتى بدون معرفة سابقة، وقد نظرت إليه أطول مما هو معتاد ثم تنبهت إليه وهو يسألها بشكل تقريرى

– هذا منزل عبد الحميد بيه جودت؟ أود مقابلة السيدة حرمه من طرف ابنها فهمى، أحمل لها بعض الرسائل منه.

قالت وقليل من الارتباك يتراقص فى وجهها

-فى الحقيقة هى غير موجودة، أنا ابنتها فايزة أخت فهمى.. يمكنك أن تتفضل فهى لن تتأخر.

قال وهو يتجه إلى حيث أشارت له

-اسمى عزيز المراسى المحامى وقد قابلت أخاك فى جلة مصادفة حيث كنت أصحب والدتى للعمرة، هو رجل مهذب للغاية وقد حملنى تلك الرسائل لوالدتك حين عرف أنى أسكن قريبا من منزلكم.

سألته

-هل تعمل هناك أيضا؟

أجابها

-لا، لم تتح لى الفرصة كما أنه يصعب على مثلى أن يجد عملا يناسبه هناك.

وكانت فايزة تنفر من فكرة السفر للعمل خارج مصر فقالت له

-لا أظن للأمر مثل هذه الأهمية فالكفاح فى بلدنا أوجب

قال فى تحفظ

-المسألة لها أوجه عديدة

فقالت بلباقة

- عندك حق، لكنها في نظرى أكبر من مجرد الكسب المادى، أحيانا أصادف من يسعى للسفر والهجرة بالرغم من أنه يكسب فى مصر ما يساوى مكسبه فى غيرها أو أقل قليلا، ولا يمكن تفسير سفره فى هذه الحالة بالسعى على الرزق.. يفسره فى نظرى كلمة واحدة هى الهروب.

استمع لها عزيز باهتمام وقد دفعه منطقها للمناقشة.. قال

- هذه الحالة يصعب تفسيرها بالكسب المادى الأوفر، لكنها تحتمل أيضا تفسيرا آخر غير الهروب، تقصدين بالهروب التخلى عن مواجهة واقع حالنا الاجتماعى والاقتصادى وغيره..

قالت وقد بدأ يلفت نظرها ثباته فى مناقشتها على غير ما اعتادت

- تقريبا! بالرغم من أن والدى ترك مصر وذهب للجزائر للعمل وأخى فى الإمارات.. إننى وإن كنت أفهم الظروف التى أحاطت بسفر كل منهما إلا أننى لم أقبل من أيهما موقفه.

قال عزيز

- لكل إنسان دوافعه الخاصة فى هذه الحالات.. فى البلد تيار جامح للهجرة حتى بين المدن المصرية. وقد يعنى ذلك ممارسة حرية السفر والتنقل وهى صورة من صور الحرية حرم منها الإنسان المصرى العادى بعض الوقت من ضمن ما حرم.

ثم أضاف بعد قليل

-مثل الإنسان الذى تجبر ذراعه وتمنع عنه الحركة بعض الوقت، ما أن تحل جبيرته حتى يتعمد ممارسة حركات غير مطلوبة وغير محددة وغير هادفة إلا الحركة فى ذاتها وربما لازالة نوع من الكبت الداخلى سببه سكون تلك الذراع فترة من الزمن.. بعد حين يطمئن ويعود لحالته الطبيعية وتقتصر الحركة على الهدف.

شعر أنه انساق وراء أفكاره أطول مما يجب فاعتذر قائلا

-أرجو ألا أكون قد أزعجتك، فمثل هذا الحديث يزعج الناس، السيدة والدتك تأخرت، سوف أترك لها رسائلها وأستأذن.

قالت وهى لا زالت مشغولة بمناقشة أفكارها

-لكن الأفضل والأكرم أن ينصهر الإنسان فى موطنه حتى من الناحية المادية.. لا تقلق والدتى على وشك الوصول.

قال

-لا تنسى أن ملايين المصريين ممن يعملون فى الخارج أصبحوا علامة إيجابية فى اقتصاد مصر.. إننى فى الحقيقة مرتبط بمواعيد عمل.

ثم أضاف وهو يتخذ طريقه نحو الباب

-خلاصة رأيى فى هذا الموضوع أن الله خلق الإنسان ليعمر الأرض بعقله وضميره ويده، فإذا فعل فهو على حق سواء سافر أو هاجر أو استقر.

سألته وهو يهم بالانصراف

-سوف تهتم والدتى بشكرك فهل يمكننا أن نعرف رقم تليفونك أو عنوانك.. قلت أنك محامى ربما احتجنا لمشورتك.

أخرج من محفظته بطاقة من بطاقات التعارف وقدمها لها وهو يقول

-مكتبى قريب منكم، فى الإبراهيمية على البحر، هو على كل حال ليس مكتبا تماما، مجرد حجرة فى مسكننا ويشرفنى أن تفكروا فى استشارتى فى أى وقت يا سيدتى.

ولقد تركت زيارة عزيز العابرة وحديثه معها القصير أثرا باقيا فى نفسها، وظلت تفكر فيما دار بينهما من نقاش وتفتش عن سبب تأثرها واهتمامها به فلاحظت أنه ليس موضوع النقاش فى حد ذاته هو سبب انشغالها به وإنما شخصية الرجل نفسه وطريقته فى الحوار، وضوح منطقه لنفسه واعتزازه به وعدم تأثره كثيرا بها كعادتها فيمن تقابلهم وتتحدث معهم وكأنه يعرفها ويدرك مضمون ما تنطق به.. هل يمكن أن يكون جمالها قد بدأ يذبل ويخبو أثره فى العيون.. لا زال حملها فى بدايته فهو ليس سببا، والشىء الأهم الذى تبينته أنه فى نقاشه معها جعل

من عقلها وحدة للحوار لا تتأثر بجنس المتحاور وهو شيء لاحظت صعوبته من قبل، وأدركت بفطنتها أن استشارة مثل هذا النوع من الرجال توحى بالطمأنينة والثقة. وكانت هى خاصة أحوج ما تكون للنصح والمشورة فأخذت تعدد لنفسها أسباب ارتياحها لهذا الرأى، فهو غير معروف لأحد من أسرتها فشبهة تحيزه لطرف معدومة، وهو رجل قانون بحكم دراسته وعمله وهو إنسان يستأمن بدليل قوته وأثر شخصيته الذى شعرت به من أول وهلة، ولقد صدق حكمها بكافة حيثياته حين توجهت إليه بعد يومين ومعها أمها بحجة شكره وسؤاله عن فهمى والتعرف على والدته.. ثم قصت عليه بحجرة مكتبه مختصر قضيتها متمثلة صديقة مجهولة وطلبت منه الرأى، فأصاب عمق المشكلة فى الحال وحدد وجهة نظره بقوله

-صديقتك اختارت دون أن تدرى المحافظة على أسرتها حين لم تترك العنان لغضبها وانفعالها دون لوم، ولو كانت ترغب فى نهو زواجها لفعلت فورا بلا أى تحسب للنتائج، إنها نظرت كما يبدو بعين عقلها لأولادها وسمعتهم، والكفاح الذى كافحته، وعز عليها أن تهدم هذا البنيان وهو شيء نادر، ولكن تبقى فى نفسها كبرياؤها الجريحة كامرأة خانها زوجها وذلك مصدر التناقض المنفعل فى أعماقها.. إذن فالمشكلة نفسية وليست قانونية أو حتى عقلية، وأظنها تستطيع مداواة

هذا الخلل بوسيلتين إحداها الاهتمام بأولادها واعتبار تضحيتها موجهة أساسا نحوهم وذلك فيه منطق وعزاء نفسى كبير والثانية معاقبة الزوج بتغيير المعاملة معه فلا تعود لما كانت عليه أبدا ليظل يذكر خطأه ويمتنع عن تكراره ولو بوعيه الباطن، وهذا يحتاج من الزوجة لذكاء شديد حتى لا يزيد العقاب عن حده المحتمل، والزمن كفيل بعلاج ما ينشأ من آثار غير محسوبة أو متوقعة.

قالت مظهرة إعجابها

-أشكر لك إخلاص نصحك.. واسمح لى أن أسألك كيف توفرت لك تلك الخبرة فى تقييم العلاقات الإنسانية وفهمها، لابد أنك مررت بتجارب عديدة.

قال مبتسما

-لا تندهشى إذ أخبرك أن عالمى الخاص لا يتعدى حياتى مع أمى وأختى حتى تزوجت وبعض الأصدقاء المعدودين، أما التجارب فمن الآخرين بحكم طبيعة عملى ومن شروط المحامى الناجح فهم الناس وحبه لهم وهذا ما أحاوله كى أصبح يوما ما محاميا ناجحا.

قالت واثقة

-سوف تصبح بإذن الله أنجح مما تتصور واعتبرنى من اليوم احدى موكلاتك.

قال

-أشكرك يا سيدتى ولننضم الآن إلى مجلس الأمهات.

فقالت

-أخشى أننا سوف نستأذن، لا نريد تعطيلك، كما أرجو أن تشجع والدتك لزيارة أمى فسوف تلقى منا كل ترحيب والمسكنان قريبان كما تعرف.

وبعد هذه المقابلة بأيام قليلة عادت فايزة إلى بيت زوجها ومعها ابنتيها وهو مظهر لفرحة وسعادة ومكرر اعترافه بخطئه وتوبته، وأنجبت فايزة بعد عدة شهور ولدا أسمته "معتز". ولم تعد علاقتها الزوجية بإسماعيل لما كانت عليه من صراحة وتلقائية بالرغم من كل ذلك لأنها ظلت تراقبه بوعى وبدون وعى وكان يستشعر هو فيها ذلك بالرغم من نفسه ومحاولته تجاهله، ولم يكن هذا بالجو الصحى لاستعادة العلاقة لسابق قوتها وثباتها.

وفى نفس الوقت زادت معرفة فايزة بعزيز وأسرته فاقتربت أكثر من والدته وتعرفت لأخته التى اشتكت لها من عزوف أخيها عن الزواج والاستقرار وانشغاله المفرط بمستقبله كمحامى حر، وعرفت فايزة بعض التفاصيل عن إصراره منذ صغره أن يؤهل نفسه بالعلم والثقافة عن طريق القراءة المستمرة، فتمكن من دراسة الفرنسية دراسة واعية

إلى جانب اتقانه للإنجليزية والتحق بعد تخرجه ببعض مكاتب المحامين الكبار ليستقى منهم الخبرة والمؤهلات ثم قرر أن يبدأ مشواره الذاتى فتخصص فى القضايا المدنية لما يتيحه العمل فيها من التعرض لأنواع متعددة من مشاكل الناس فى علاقاتهم ببعض، وصدقت فايزة بإعجاب ما سمعته عن شهامته فى قبول قضايا من فقراء دون أن يفرض عليهم ما لا يطيقون أو يؤثر ذلك على حماسه لحقوقهم. وقد وكلت له بعض قضايا الشركة وعرفته بزوجها الذى رحب بالتعاون معه طالما أنه يحوز ثقتها.. قالت له مازحة فى أحد لقاءاتها معه

-أعد لك مجموعة من المرشحات للزواج لا يمكنك رفضهن كلهن مهما كانت شروطك، لقد وعدت أمك وأختك بالمساعدة فى تحقيق ما فشلتا فيه.

رد عليها ساخرا

-المشكلة أننى قد أقبلهن كلهن فتجدين نفسك فى ورطة كبيرة.

وظلت تحاوره قائلة

-هل تحسبنى ساذجة لأقدمهن لك دفعة واحدة؟

فأجابها بإصرار

-وهل تنتظرين أن أبدى رأيى إلا وقد عرفتهن جميعا؟

ثم عاد إلى جده وقال

-سوف أتزوج يوما ما فلا داعى للقلق.

وتعود لجدها أيضا دون أن تغير الموضوع ربما لفضولـها أن تعـرف ما يدور فى أعماقه فتسأله

-لابد أن لك رأيا فى هذه المسألة لم تطلعه على أحد لتظل لنفسـك حجة فى الهروب، ولو أعلنته لأصابه النقد وضعف منطقه وما اسـتطعت أن تفلت من أيدينا.

ويجيب متهربا

-أنت تزوجت وانتهى الأمر فلن ينفعك رأيى.

فنظرت إليه دون أن تفهم مقصده وأضاف بسرعة

-الأمور بينك وبين إسماعيل عادت لطبيعتها والحمد لله.

فسألته مندهشة

-وكيف عرفت أنها لم تكن طبيعية؟

فنظر إليها عاتبا

-تجنبك الحديث عن زوجك فى البداية ووجودك فى بيـت والدتـك مع أولادك دون تفسير وحديثك عن الصديقة المجهولة، لكننـى أوافقـك تماما على هذا التكتم فهو أفضل لحياة الأسرة ومستقبلها.

قالت مترددة

-لقد كنت محقا ففى سبيل أولادى تهون أشياء كثيرة.

ويبدو أنه فهم فقد سكت طويلا ثم قال مغيرا وجهة الحديث

-نعود لسؤالنا التقليدى، أية خدمة يمكننى أن أؤديها لك؟

أجابته

-استشارة بخصوص الشركة.

-عقد جديد؟

-أفكر فى نقل ملكيتها القانونية لإسماعيل فقد ألمح لهذا كثيرا دون أن يصرح به، بالرغم من أنه مفوض ليفعل ما يشاء، ذلك أو أتنازل عنها للأولاد ويصبح هو المتضامن عنهم.

قال عزيز بطريقته الغريبة فى إصابة عمق الأشياء

-لا أظنك تفعلين هذا بلا مقابل فهو ليس من طبعك كما أنه ضد منطق الأشياء، كما لابد أن يكون المقابل الذى تفكرين فيه كبيرا.

قالت تحاول التهرب من استفساره

-أريد أن أتفرغ للبيت وأتنازل عن نصيبى فى الإدارة.

ثم أضافت وقد شعرت بعدم اقتناعه

-لا ترضى أبدا بغير الحقيقة؟ على العموم أريدك أن تبحث الإجراءات القانونية فى كلتا الحالتين ولا تحدثه فى الموضوع قبل أن أستقر إلى قرار.

ثم نهضت لتمضى حال سبيلها وقد تبدلت سيماؤها مظهرة الإنشغال فقال لها عزيز وهو يصحبها نحو الباب

-تعرض المرأة لاختبار القوة أخطر من تعرض الرجل لأنه اعتاد منطقها أكثر مما اعتادته هى وأطول بحكم التاريخ.. إننى أعجب بالمرأة القوية لكننى لا أحب التعرض لاختبارها لأننى إن لم أخسر فسأفقد اعجابى بها لو كانت الخاسرة.. هل فهمت سبب حيرة أمى وأختى؟ هذا جزء من رأيى الذى لم أطلع عليه أحد.

قالت وهى تنهى الحديث

-أرجو أن تعرف يا أستاذ عزيز أننى أيضا لا أرضى بغير الحقيقة كاملة.

وتركته وقد انشغل بحديثها أكثر مما اعتادته نفسه.

سأل أمه فى حديث معها بعد هذا اللقاء بفايزة

-ألم تخبرك والدة فايزة بشىء غير طبيعى تواجهه ابنتها فى حياتها العائلية أو فى شركتها؟

أجابته أمه

-فى الحقيقة يا ابنى لم أزرهم منذ زمن، هل حدث شىء؟

- تعرفين أنهم يلجأون إليّ فى بعض شئونهم، كانت فايزة بمكتبى لأمر يخص الشركة ولم أطمئن تماما لحديثها يبدو أنها تعانى من مشكلة.

قالت أمه

- بالرغم من المال والجمال والأولاد لا يبدو لى أنها سعيدة فى حياتها.. لكن ما سبب اهتمامك إلى هذا الحد؟

- لا أدرى، لكنها كلما تحدثت معى تركت فى نفسى ما أتساءل عنه دون جواب مفيد.

استفسرت عما يقصده فقال كأنما يحدث نفسه.

- كيف تزوجت فايزة من إسماعيل هذا، إن إمكانياتها تفوقه بكثير وإذا كانت لم تحبه فالمسألة تحتاج لتفسير؟

- إنه النصيب يا ابنى، وما يدريك ما بينهما.. الله وحده يعلمه.

ولم يكن يحب مجادلة أمه فقال غالبا لنفسه

- نعم النصيب يفسر كل ما هو غامض مجهول ولكن ما معنى النصيب.. لا يهم.

وكان من عادة عزيز قضاء شهر يونيه فى مدينة مطروح بمعسكر نقابة المحامين هناك منتهزا فرصة انتهاء السنة القضائية ليتفرغ لقراءاته الخاصة وينعم ببعض الهدوء الذى يطلق معه العنان لتصورات

المستقبل وتأملات ما يدور حوله من أحداث، وقبل أن يبدأ رحلته اتصل بفايزة ليخبرها بجواب ما سألته عنه فى مقابلتها الأخيرة.. قال بعد السلام

-ليست هناك مشكلة فى نقل ملكية الشركة لزوجك عن طريق البيع والتسجيل أو لأولادك على أن يشاركهم والدهم كمتضامن.. مجرد بعض الإجراءات فى البنوك وحصر التزامات الشركة نحو الغير لإخلاء طرفك وإبراء ذمتك المالية. حين تصلين لقرار يمكننى تدبير كل ذلك.

-سوف أخطرك بقرارى حين الوصول إليه وأشكرك لاهتمامك.

-أرجو ألا يكون الأمر عاجلا لأننى سأغيب عن الإسكندرية طوال شهر يونيه.

-...

-آلو.. فايزة؟

-إننى فقط أخشى أن يحدث تطور غير مرتقب أسرع مما أظن.

-ما معنى ذلك؟ هل هناك ما تخفيه يا فايزة؟

-لا أبدا، أنا قلقة لا أدرى لم.. هل يمكننى الإتصال بك إذا حدث شىء؟

-...

-عزيز!

-نعم، سوف أحاول أنا الإتصال بك فذلك أيسر.. تحياتى للعائلة.

- لكنك لم تخبرنى بمكانك.

وكان قد أنهى المكالمة وفى نفسه حيرة وشك.. إن لم يكن هناك ما تخفيه فلم قلقها؟ أم هو مجرد هاجس يهمس فى أعماقها؟ ولم تبثه هواجسها وقلقها؟ إنه لا ينكر اهتمامه وإعجابه بها لكن كل ذلك محصور داخل إطار علاقة العمل وصداقة والدته لأمها.. ولم يستسلم لحيرته طويلا ربما خشى من تداعى الأفكار فتوخى الحذر.

أما هى فوضعت سماعة التليفون وهى تنظر إليها بأسى فحديثها إليه يرتقى بذاتها ويوحى إليها دائما بالأمان.

وحدث خلال هذا الشهر الذى غاب فيه عزيز عن عالمها ما لم يخطر على باله أو بالها بأى حال، ومهما يمكن تأويل هواجسها وخواطرها وقلقها الدفين مع المبالغة فى التفسير والتأويل ما كان له أولها أن يخمن ما حدث.

لقد ظن عزيز بمسألة نقل ملكية الشركة أنها تفكر فى الاستقلال بنشاط جديد أو ربما محاولة منها لرأب ما تصدع من جدار الثقة فى بنيان زواجها، أو هو تطلع للقيام بدور الأم كاملا بالتفرغ له، أما أن يصبح نقل ملكية الشركة ورقة ضاغطة على إسماعيل تحقق بها فايزة طلاقها منه فذلك ما كان حقا أبعد من أى تصور.

قالت له أمه إثر عودته من مطروح :

-اتصلت فايزة تستفسر عن موعد عودتك بإلحاح وانزعاج وتنتظر مكالمتك لها فى بيت والدتها فور وصولك..

ثم أضافت وهو يتفحص وجهها باهتمام

-شعرت من حديث والدتها أن أزمة شديدة طرأت على زواجها استدعت مجيىء أخيها وأبيها من الخارج واجتماع كثير من الأهل والأقارب.

قال عزيز فى وجوم وغموض

-ذهنى مشغول بأمور أخرى أكثر أهمية.. سوف أتصل بها غدا بعد أن استريح.

وقد عاتيته فايزة عتابا شديدا على تأخره فى الإتصال بها لما بعد عودته بيومين فقال لها

-كان لابد من تصفية الذهن قبل الإقبال على حديثك خاصة حين عرفت أهميته.. قاطعته قائلة

-ألم يصف ذهنك طوال شهر بأكمله؟

قال لها فى هدوء

-قضايا العمر لابد من صقلها المستمر وقد كان شهرا نافعا حقا.

قالت له

-لست أفهم

رد عليها :

-ربما أفسر لك حين يصفو ذهنك مما ينوء به.

قالت :

-أريد مقابلتك.. ساكون بانتظارك مساء اليوم.

وفى المساء فتحت له الباب ابنتها أمل وصحبته إلى حجرة الجلوس وهى تحكى له كعادتها آخر ما سمعته من نكات وتستفسره إن كان يرغب فى لعب الشطرنج معها، وجاءت من خلفها هبه عمرها ست سنوات تصرخ فى أختها أنها هى التى ستلعب معه وتتعلق بيديه فى مرح.. من خلفهما تقدمت فايزة نحوه وهى ترحب به وتطلب من صغارها التوجه لحجرتهم لأنها ستحدث عمو عزيز فى مسائل هامة.

قالت وهى تتخذ مجلسها فى مواجهته

-هل تعرف أنك أثرت فضولى بحديثك عن قضايا العمر.. أى تلك القضايا تقصد؟ أجزم أن المرأة ليست فيها.. هل أنت عضو فى جماعة سرية؟

قالتها مازحة فأجابها سائلا

-ما حقيقة ما بلغنى عن خلاف بينك وبين إسماعيل؟ وجودك مع الأولاد هنا ليس أمرا عابرا فيما يبدو.

نظرت إليه تتفحصه وقالت مجيبة وقد فقدت روح الدعابة

- تم طلاقنا منذ أسبوعين، هناك بعض الإجراءات الخاصة بى وبالأولاد أرجو أن تقوم بمتابعتها.. لقد اتفقنا على كافة المسائل.

ولولا أن "عزيز" يعرفها من قبل ويدرك قدرتها على ضبط نفسها واستيعاب واقعها بإرادة غريبة لارتاب فى أنها تتحدث عن حياتها وما لحق بها من دمار وظن حديثها مجرد حكاية صديقة مجهولة، لكنه - وكعادته فى حديثه إليها- ارتقى بسرعة لمستوى واقعها واختلط بحقائقه. قال وهو يتأملها ملاحظا نحافتها عن آخر مرة شاهدها

- واجبى كمحاميك لا خلاف عليه، ولكن للصداقة بعض الحق فى مراجعتكم لما اتفقتم عليه أو اختلفتم بسببه، ولا يزال فى الوقت متسع، لقد اختصرت عبارات الدهشة والتأسف وابتعدت عن المجاملة والمواساة، لأنى أعرف قدرتك على تخطى كل ذلك إذا استقرت نفسك على قرار.. لهذا لا يتبقى غير مراجعة القرار وما بنى عليه من أسباب أخشى أن تكون كلها بدوافع باطنة لم يتمكن الزمن من تذويبها.

قالت له

- لديك مقدرة غريبة للوصول إلى أعماقى فى لحظة مع أننا لا نعرفك من زمن بعيد، حتى أخى فهمى الذى اعتبرته دائما الإنسان الأقرب فى حياتى وتعلقت به طوال عمرى، حتى هو لا يمس أعماقى بهذا الوضوح.

ثم أضافت بعد قليل وهى تفكر فيما تقوله بعمق وحرص

-حتى تطمئن فقد راجعت حياتى مع إسماعيل بدقة وتأكدت أن زواجى به لم يحقق لى السعادة ولم يحرك ذاتى لمفهوم الحياة الخلاب، كانت حياتى معه كفاحا متصلا هدفها النجاح وأعتقد أنه كان محقا فى أن إصرارى على النجاح معه لم يكن حبا وإنما نوع من الجهاد.. لكنه لا يلوم غير نفسه إذ لم تنكشف فيه القوى التى يهتز بها قلب المرأة.. لأنه حقيقة يفتقر إليها..

قاطعها عزيز

-لا أظنك يا فايزة استيقظت فاكتشفت فجأة افتقارك للسعادة ثم قررت الانسلاخ من حياتك معه، هل نسيت الذين سيتأثرون حتما بقرارك.. أولادك.. إن ما حدث وما تفسرينه لا يتفق مع طبيعتك، لو كنت انفصلت عنه حين اكتشفت خيانته منذ عهد مضى لكنت أقرب للمنطق، لكنك تحملت ما كان وقبلت الاستمرار من أجل أبنائك وحفظا لسمعتكم.. الآن تنفذين قرارا كان من الممكن الدفاع عنه منذ سنتين أليس هذا غريبا أن تجعليه ممكنا وبهذه السرعة؟ ثم كيف استجاب هو لك مهما كان إصرارك وتعنتك؟ كيف رضى بذلك أهلك؟ سكت قليلا فأمسكت هى بزمام الحديث وقالت

-لم يوافقنى أحد إلى ما قررت وفعلت، كلهم يقفون ضدى، حتى أبى أنبنى قائلا أليس هو الذى اخترته وفضلته عن سواه كيف أفرط فيه بعد أن أصبح مرموقا، وفهمنى نأى لجانب صاحبه وافترض القصور فى..

تدخل عزيز ليقول

-لا أحد يا فايزة يقرك فيما فعلت وأظن لأسرتك الحق أن تثنيك عن عزمك وتحاول إعادة المياه لمجاريها فنتائج إصرارك اجتماعيا ليست هينة.

قالت

-كنت أظنك الوحيد الذى سيقنعه موقفى وأستند لرأيه فأقاوم الضغط الهائل الواقع على.. أليس من حقى اختيار مسلكى فى الحياة وإعادة تقييمه وكشف نصيبى من السعادة فيما قضيته من عمر؟

-نعم من حقك، ولكن كيف ظننت بمنطقك هذا أن أقبل أن تفسدى أسرة وتهدمى بنيانها.. لا لست أؤيدك فى رأيك.

أطرقت إلى الأرض وهى حزينة ثم قالت

-كنت أعلم أنك لن تقبل بغير الحقيقة كاملة، لكننى حاولت أن أخفى عنك ما حدث كما أفعل مع الآخرين ويبدو أنه لا جدوى بغير اطلاعك على كل شىء.

-هل اكتشفت خيانة جديدة؟

-بل أسوأ من هذا، لقد ثبت لى أنى أعاشر رجلا شاذا.

-تقصدين مسلكه.: أخلاقه.. مبادئه؟

-بل طبيعته كرجل.

وسكتت تختبر رد فعله وتشهد ما سوف يتحول فى منطقه، لكنه نظر إليها فى هدوء وقال باحتراس وحذر

-مثل هذه الاتهامات لا تثبت دون برهان أكيد ولا يمكن تحقيقها لمجرد شبهات..

قاطعته قائلة وغضب يمتزج بسخرية يتراقص فى وجهها

-هل تحسبنى قادرة على اتهام زوجى بذلك لمجرد الشبهة؟

قال مترددا

-ارجوا ألا يغضبك تريثى وتمهلى فى موقف كهذا فذلك جزء من طبيعة عملى المكتسبة، كما أن خطورة الاتهام تجعلنى لا أقبله بغير شاهد مبين.

-وهل يكفيك فى ذلك اعترافه على نفسه؟

قال بعد فترة من الصمت

-لابد من وجود شواهد قاطعة فالاعتراف على النفس أحيانا يثير الشك بالرغبة فى إخفاء ما هو أخطر.

قالت محاورة

-ألا يحرك الضمير اعتراف المتهم على نفسه فلا يحتاج لدليل أو شاهد؟

أجابها

-شخصية إسماعيل لا توحى بكل هذا.

-أنت محق مرة أخرى، فاعترافه كان بمواجهته ببينات قاطعة فلم يتورع أن يدفعها بأنه حر وأن تلك المسألة تخصه وحده وأننا فى بلادنا نقيم لها وزنا لأننا لا نقدس الحرية الشخصية كما يقدسها العالم المتحضر.

-يقصد أمريكا؟

-ظننت ذلك أيضا.. لكننى فى بعض الأحيان يفزعنى خيالى بصور من الماضى البعيد حين ألمح لاعترافه البشع صدى فى صداقته الغريبة لفهمى فتكاد رأسى تنفجر من العذاب.

قال عزيز قبل أن يسترسل فكرها فى تداعيه

-لا تضخمى المشكلة فهى ضخمة بالفعل.

-لقد شعرت وهو يحدثنى بهذا الاستهتار أننى أمام شخص لا أعرفه ولم أقابله أبدا هل يعقل أن يخفى الإنسان هذا الكم من القبح دون أن يستشعره أقرب الناس إليه؟

قال عزيز مشفقا

-ولم يكن أمامك غير الطلاق.. الآن ينكشف لى وجه الحق فى قرارك

-وحتى أفصله عن حياتى تماما بعت له الشركة وهى كل ما يهمه مقابل أن يتنازل لى عن حضانة أولادى وبعض التفاصيل الأخرى أرجو أن تباشر تنفيذها نيابة عنى فأنت أخلص من أعرفه لأداء ذلك وأصلحهم.

-سوف أفعل.. لكننى أنصحك أن تقصى على أسرتك تلك الحقائق البينة فهم لن يصدقوك وهم يجهلونها.

-ربما أفعل ذلك إذا استأنست منهم فهمك وعطفك.

ثم قالت بعد قليل وقد بدأت تستعيد روحها المتوثبة

-ألن تحدثنى عن قضايا العمر التى انشغلت بصقلها شهرا كاملا؟

أجابها وهو يبتسم ابتسامة صافية

-نعم فى مرة قادمة فحديثى عنها يطول.

وخرج من عندها وقد أضيف إلى شخصيتها فى تقديره مزيد من الوضوح والعمق فلم تمس مجرد امرأة قوية الإرادة عزيزة النفس بل اصطبغت إرادتها فى رؤيته بصبغة إنسانية تتعدى الأنانية الفردية التى تعصف بالمبادىء والمثل حين تدفعها بواعث الهدم كالحقد والغيرة، فبالرغم من كظمها لغيظها وكبريائها الجريح وهى تقبل توبته حين

اكتشفت خيانته فى المرة الأولى وظنها أن ما اقترفه وقتئذ مجـرد زلـة أو تعويض لشعور بـالنقص.. إلا أنـها حيـن تـأكدت أن مسـلكه إن هـو إلا تعبير مؤكد عن طبيعة سقيمة تخفت تحـت ردائـه الظـاهر أيمـا تخفـى قررت أن تربأ بطبيعتها المسـتقيمة عـن دنيـاه حفظـا لذاتـها مـن سـقمه واتقاء لحياتها من مصابه، فأكدت انبساط نفسـها وارتفـاع روحـها بغـير تعمد أو افتعال بالرغم من المقاومة العنيفة من حولها. وظل عزيز طـوال الطريق يفكر فيها ويتصـور مـا سـوف تعانيـه مـن تعنـت الأهـل إن لـم تخبرهم بالحقيقة وصدقوا ما تقول، لكنه اطمأن بعض الشيء فهى أقوى حالا مما لو كانت لا تزال فى عصمته.

ولما ابتعد عزيز بذهنه عـن هـذا الجـانب مـن القضيـة أدرك ضعفـا خطيرا فى أساس حكمه فيها، لأن ثقته المؤكدة فى صدق ما اعـترفت بـه فايزة لا تغنى عن الاستماع للطرف الآخر فـى القضيـة فـهو يعلـم كيـف تختلف الرؤية باختلاف زاوية المبصـر وموقعـه مـهما يكـن صدقـه وأن العدل فى الحكم يحتم الاستماع لإسماعيل فربما أمكنـه إضـاءة جـانب مظلم لا يراه وتوجه لمقابلته بمكتبه بالشـركة فقابلـه كعادتـه بـود رجـال الأعمال الذى لا يحمل أى صدق وربما اختلف قليلا هذه المـرة لتقديـره سبب حضوره.. قال عزيز بعد قليل

-يؤسفنى ما انتهت إليه الأمور.. فى الحقيقة كنت غائبا عن الإسكندرية طوال الشهر الماضى..

قال إسماعيل مسرعا

-دعنا نهتم بالمستقبل فاستذكار الماضى لن يفيد وأعتقد أننى وافقت على كل طلباتها.

قال عزيز وقد شعر أن محدثه يحصر نطاق حديثه

-نعم، هى أخبرتنى بكل شىء.. وفى هذا المظروف كل الأوراق المطلوب توقيعك عليها، ترتيب مسألة الحضانة والنفقة للأولاد وغيرها.

-تقول أخبرتك بكل شىء؟ أعنى هل هناك ما هو مطلوب منى بعد توقيع هذه الأوراق لينتهى بيننا كل شىء؟

-لا شىء.

ثم أضاف مترددا وهو يجرب مستمعه

-ولكن وجود أولاد بينكما يستحيل معه إنهاء كل شىء..

قال إسماعيل وكأنه لم يسمعه

-إننى أقدر إمكانياتك كمحامى ولا يجب أن يتأثر التزامك نحو الشركة بهذا الوضع العائلى.

ثم أردف ليؤكد أنه سمعه

-الشركة دائما كانت هدفى الأول فهى العلامة الحقيقية على نجاحى والدليل العملى على تفوقى، لقد وهبتها كل جهدى وكفاحى فكان حقا طبيعيا أن أمتلكها، أما الأولاد فهم يحملون اسمى وسيظلون يحملونه مهما حدث وأستطيع رؤيتهم وقتما أشاء. فأنا لم أخسر شيئا كما ترى سوى تجربة زواج فاشلة.

-ربما يفسر هذا التقييم عدم انفعالك للماضى، ويبدو لى أنك لا تدافع عنه بحماس.

غمغم إسماعيل

-ليس من الحكمة الدفاع عن شىء بأكثر من قيمته يا أستاذ عزيز ومواجهة الواقع أفضل سبل العيش وأنا راض بواقعى الآن.

-وفرت على الجهد.

-ماذا تعنى؟

-لا شىء، دعنا نركز على المستقبل فهو كما قلت أحق بالاهتمام الآن.

قال عزيز لفايزة وهو يخطرها بأن كافة المسائل المعلقة بينها وبين إسماعيل قد سويت

-أنت أيضا عليك أن تركزى بصرك صوب المستقبل.

فقالت ووجهها ممتلئ بإيحاءات الحزن والأسى حتى طفرت الدموع من عينيها

-أى مستقبل يا عزيز أهتم بالنظر إليه بعد أن أفنيت ما يزيد عن عشر سنوات فى بناء وهم كبير.. ما حدث حطم فى داخلى أشياء كثيرة أفقدنى الإيمان بالحياة، كان المنتظر لمن هو فى موقفى أن ينعم بالسعادة والاستقرار ويقبل على ثمرة كفاحه راضيا هانئا أما أن يجد نفسه فى مفترق طرق لا يعرف أين تؤدى به إحداها فذلك هو ظلم الأقدار وعبثها.

قال عزيز وهو يلحظ ويقدر إحساسها المفاجئ بالفراغ

-بالرغم من كل ما حدث وهو صعب وقاس على النفس لا أعتقد أنى أوافقك على تلك الروح المتشائمة المنبثة فى حديثك ولا أيضا الدمع المنهمر على وجهك..

قاطعته أمها وكانت تصغى لحديثه إليها

-إنها نادرا ما تبكى ولا تفعل ذلك أمام أحد أبدا.

استمر عزيز فى حديثه إلى فايزة

-لو كان هناك سبب لليأس أو البكاء لاقتنعت، لكننى أرى أمامى سيلة ناجحة ناضجة تفهم الدنيا عندها من قوة الإرادة والعزيمة ما جعلها تختار كرامتها وعزتها مهما يكلفها ذلك أمام أسرتها ومجتمعها، قادرة

بإذن الله أن تكمل رسالتها فى تربية أولادها والعناية بـهم ويكفى هـذا من هدف نبيل تعيشين من أجله، لا أراك خاسرة سنى عمرك بـل محققـة لمستقبل آت ينتظر الاجتهاد ويستقى مـن مـاضيك عمـق التجربـة وقـوة البنيان.

وكانت تستمع إليه بكل كيانها وكأنه يخاطب كل خلية فى ذاتها بلغة غريبة تؤالفها وتختلط بمعانيها، وزاد انتباهها إليه وهـو يتحـول بحديثـه لوجهة جديدة فيقول

-سوف أخبرك ببعض قضايا العمر التى تشغلنى فربما شـغلتك كمـا آمل أن تشغل كل مصرى.. إذا لم يكن لديك ما يكفيك من مشـاغل كـى تدركى أن الحياة تكفى كل حر وتزيد، من قضايا عمرى أن أسهم فى حل مشاكل وطنى، أن أقدم ما أسـتطيع مـن فكـر ورأى لحـل مشـكلة الأميـة المتفشية، أمية اللغة وأمية الأخلاق، مشكلة الفوضى التـى تسـيطر علـى أسلوب حياتنا، مشكلة الإنسان المصرى مع مفهوم العمـل ونصيبـه مـن الجهد الإنسانى المطلوب لتطويـر الحيـاة.. وغـير ذلـك ممـا أفكـر فيـه ويشغلنى وأبحث له عن طريق واقعى للمساهمة والمشاركة فى حله.

قالت فايزة وقد عاد إليها وعيها النافذ وإدراكها المميز

- لقد اخترت حقا اللحظة المناسبة لتجيب ما سألتك فيه من قبل، إن الإنسان ليشعر بالحماقة إذ تطويه مشكلته الخاصة فيضخمها ويدعها تلتهمه وينسى نصيبه من الوعى العام، هى حقا أنانية مخجلة.

-لا تسرفى فى لوم نفسك كما لا داعى للانطواء فيها، كل ما أرجوه أن تقدرى ما بين يديك حق قدره وتنطلقى به فى عمرك المقبل واثقة من السعادة وأعتقد أنك قادرة على ذلك.. أنا لا زلت محاميك فلا تترددى فى طلب العون متى أردت.

وابتعد عزيز عن منزلهم وذهنه مشغول بما دار من حديث وقد اندهش فى أعماقه من ملاحظة الأم عن ابنتها أنها لا تبكى أمام أحد بينما كانت تزرف أمامه دمعها حزينا تعتصره من ذاتها، ربما كان هو السبب الذى جعله يفيض بخواطره ويمنحها من همومه ما كان يخفيه عنها لبعدها عن مراميه.

وأسلمت فايزة نفسها مختارة لعالم جديد بدأ يبزغ فجره فى أعماقها ويتخذ أبعادا تتآلف مع أفكارها وعواطفها بطريقة محيرة لم تعهدها من قبل. ولاحظت كيف عبرت الحيرة عن نفسها وهى تختار ما ترتديه لتستقبل عزيز فى المرة التالية، حيرة لم تعهدها من قبل إزاء تلك المواقف، وحاولت أن تخمن أى الألوان أحب إلى عينيه وتخيلت ما

سيدور بينهما من حوار وقد كشف لها من ذاته عالما مجهولا لم يتراءى لعقلها من قبل، وكم من غوامض أخرى يخفيها عمن حوله هذا الإنسان.

ولأول مرة فى حياتها تضطرب نبضات قلبها لذكر رجل وتتمناه فى نفس اللحظة إلى جوارها، وحاولت دون جدوى أن تتجاهل ما يدور فى أعماقها.

وكانت والدة عزيز تصحبه فى زيارته تلك فنبهها ذكاء الأنثى الفطرى لما خفى من معانى فى تصرفات فايزة تلك الليلة.. نظراتها وحديثها لإبنها وانشغالها الملحوظ بوجوده، فقالت له أثناء عودتهما

-أليس غريبا أن تتقبل فايزة وضعها الجديد بهذه الروح المعنوية الملفتة؟ كيف استسلم أهلها لقرارها ولم يحاولوا إزالة ما نشأ من خلاف؟ إن لديها ثلاثة أبناء يستحقون كل محاولات التوفيق.

ورد عليها عزيز مراوغا

-الله وحده يعلم، لكن امرأة فى سنها وموقفها لا تتخذ مثل قرارها وتصر عليه دون سبب قهرى. أما معنوياتها المرتفعة فتفسيرها أن قوتها الذاتية تتقبل حقائق الحياة ووقائعها وتتخطاها إلى المستقبل لإيمانها الشديد بالحياة.

قالت الأم فى لمحة نافذة

-أظنك بطريقتك فى الحديث تلك قادرا على التأثير فى أى امرأة ذكية وهى لا شك فى ذكائها.

قال

-تعرفين أنى محاميها

قالت الأم غير راضية

-أرجو أن تكون تلك الحقيقة واضحة لها ولك طوال الوقت.

وسكت عزيز وطال صمته حتى وصل البيت وإن كان ذهنه لم يتوقف لحظة عن مراجعة ما دار من حديث بينه وبين فايزة والتفكير فيه، فقد أبدت استعدادها للتعاون معه ومشاركته فيما يتصوره من خطوات نافعة لتحقيق أهدافه الراقية كما وصفتها، وطلبت منه أن يفسر لها تفصيلا كل شيء ليزداد فهمها واقتناعها ويتسع عالمها الضيق، فقد اكتشفت ببساطة أن السنين كرت عليها دون أن تعرف من مصر غير شركتها وعملائها، أموالها ومصادر إنفاقها وهؤلاء الناس من حولها، أما ما يصل سمعها من أخبار عامة فيصل دون قصد وبغير اكتراث حقيقى إلا ما يرتبط بمصلحتها المباشرة، وكان ذلك انطباعها عن كل من صادفته فلم تشعر بغربة أو اختلاف، حتى صادفها فى طريق عمرها هذا المحامى الشاب الذى كلما قابلته أو جلست إليه أحست بأنها كانت من قبل مغمضة العينين.

ودون أن تدرى كان شلال حياتها الزاخر يستجمع قوى جديدة من روافد لم تكن تعرف الطريق إليه من قبل.

الفصل الثالث

وهل يتحقق الوعد

كان الجو فى الشرفة ساكنا هادئا يهيئ للنفس أن تسترسل فى حوارها وتناجى خواطرها وتقتفى أثر محيطها فتستوى الطمأنينة وتتخير أسباب الثقة، وكان ذلك فى بداية شهر سبتمبر حيث بدأت الإسكندرية تستعيد بعض هدوءها بعد عبث زوارها به، وهو الوقت الذى تتخيره فايزة من كل عام لتنتقل إلى شقتها بالمعمورة فتسمح لأولادها بالانطلاق قبل بداية المدرسة وتظفر هى ببعض السكينة وكانت أحوج ما تكون إليها فى هذه السنة بما حفلت به من تغيير خطير فى مسار حياتها لا زال عليها أن تستوعبه وتتهيأ لما يخلفه من أثر.

وكانت فى تلك اللحظة تسأل نفسها إن كان عزيز سيتمكن من الوفاء بموعده أم سيحدث ما يمنعه أو يؤخره، فقد كانت تلك المرة الأولى التى تدعوه فيها إلى بيتها بهذا المكان كما أنها لم تكن دعوة عمل كما هو مألوف بينهما، بل قالت له

-سوف أنتقل مع أمى والأولاد إلى المعمورة بعد أيام قليلة، المكان رائع هذا الوقت من السنة فهل أطمع أن تزورنى يوم الثلاثاء القادم الساعة السادسة مثلا.. لن نتحدث فى العمل وإنما لتفسر لى ما أثرته فى نفسى من تساؤلات بحديثك السابق فأنا مهتمة به جدا.

وأجابها متحمسا

-سأحاول ألا أرتبط بشىء هذا الوقت من الأسبوع.

وبالرغم من رنة الثقة فى صوته وهى تنصت إليه خلال أسلاك التليفون إلا أنها افترضت أعذاراً يمكنها أن تعوقه عنها زادت كلما اقترب موعده حتى ظنت أن صراحة الدعوة تكفى لتمنعه من تلبيتها، إلا أن ما حولها من هدوء أشع فيها طمأنينة باللحظات القادمة وظلت فى ترقب حتى انطلق رنين الجرس وقد تعدت عقارب الساعة السادسة مساء بدقائق قليلة، وكانت أمها أسبق لاستقباله وتحيته وهى تصحبه فى اتجاه الشرفة المطلة على البحر حيث كان مجلسهم، وبعد الأسئلة المألوفة عن صحة والدته وأحواله العامة قالت له فايزة وقد استأذنت الأم لبعض شأنها

- تصور أن لهفتى الشديدة لزيارتك صورت لى أنك لن تأتى، لكننى فى أعماقى كنت مطمئنة لحضورك. هل جربت ذلك الشعور الذى يقاوم الظنون بطمأنينة غريبة؟

أجابها وهو يتأمل إشراقة وجهها لمحضره مؤكدة كل كلمة تقولها

- وجربت أيضا الشعور الذى يقاوم الواقع المضطرب مهما كانت حقائقه بسكينة وثقة ليس لها أى سند من عقل أو منطق.

ثم أضاف مغيرا وجهة الحديث

- هل بدأ الأولاد يألفون ما طرأ من تغيير فى حياتهم؟

أجابته وقد فهمت ما يقصده

-لم يكن إسماعيل فى حياتهم بالعمق الذى تفترضه حتى يشعروا بافتقاده إلى هذه الدرجة، وهم على كل حال لا يظهرون أى رد فعل غير طبيعى.. أستطيع أن ألمح فى عينيك حديثا آخر هو ما أود سماعه فهو طريقى لاستقراء عالمك.

فقال وهو يشعر بسعادة غريبة تتراقص فى طيات نفسه

-اقترابك منى إلى هذا الحد حرك فى أعماقى أشياء لم أكن أعرفها أو ربما حصرت وجودها منذ زمن بعيد، أريد أن أخبرك بشىء شغلنى طوال الأيام الماضية لم أستطع صياغته فى كلمات واضحة، لكننى قد أستطيع مقدرا حسن فهمك أن أنقله إليك.

وكانت فايزة تنصت إليه كما هى عادتها معه بكل كيانها واهتمامها، وكأنها تخشى أن يفوت سمعها كلمة يفوه بها أو معنى يقصد إليه، ولما وصل فى حديثه إلى هذا الحد دعت ربها فى لمحة من لمحات النفس الخفية التى لا ترتبط بالزمن وإنما ترتهن بقوة الداعى، أن يهديه إلى ما عجزت أن تهتدى إليه وتفسره وظل يشغلها كما شغله وربما من قبل، لقد كانت تلك اللحظة هى مولد سبق إرادته وتسليمها إليه عن وعى وإدراك مهما استطاعت وتفوقت أن تلاحقه وتجاريه فيما بعد لدرجة أذهلته.. لقد انبهرت فى تلك اللحظة به كأول إنسان تصادفه فى حياتها يمكنها أن تطلق فيه كل طاقاتها بلا تحفظ أو خوف وتظل موقنة بالأمان

إليه لأن حدوده لا زالت بعيدة.. واضطرب قلبها اضطرابا لم يعرفه جسدها من قبل وهز معه كل نسيج ينبض فى كيانها وهى تسأل نفسها سؤالها القديم الذى لم تعرف كيف تجيبه لمدرستها وهى فتاة صغيرة ولم يهدها عمرها الذى عاشته من بعد لإجابته، فى تلك اللحظة قفز السؤال ردا على جواب اهتزت بصدقه روحها وهى تستشف وجوده، حين استمر عزيز يقول

-لقد أدهشنى عمق فهمك لما دار بيننا من حديث حول طموحى لدور مؤثر فى الحياة العامة بمصر محاولاً إذكاء روح الحرية والإبداع لدى الإنسان المصرى ليتخطى ما يعرقله. كثير ممن حدثتهم فى ذلك أعرضوا عنى أو اتهمونى بالخيال، ونصحنى منهم من نصح أن أهتم بعملى وبحياتى الخاصة.. أما أنت فأظهرت من الاهتمام ما شجعنى لأفيض معك ومن الغريب أن مشاعرك اهتزت له قبل عقلك.

سكت قليلا ثم أردف

-أشعر يا فايزة أن شيئا ما ينمو بيننا يستقى سبب وجوده ونموه من أعماق مجهولة فى نفسى وربما فى نفسك أيضا وهو أحوج ما يكون لرعايتنا إن صدق إحساسنا به لأن الظروف التى يتبدى فيها لا توائمه، لكنه يستحق منا أقصى درجات الحرص والرعاية، نبتته نادرة تنمو فى

أجواء لا تناسبها وتربة يخشى إن امتصت منها فوق احتمالها أن تنطمس فيها وإن عزفت ماتت ذابلة.

وتحدثت هى لتؤكد له كل معنى قصد إليه بحديثه قائلة ووجهها مشرق بابتسامة صافية

-كأنك كنت تنظر فى أعماقى وتحكى.. منذ اللحظة التى حضرت إلينا حاملا رسائل فهمى وشىء لا أعرفه ولم أجربه من قبل يتشكل فى كيانى، وكما قلت فهو يصعب تعريفه لندرته وغموضه، لكنه شىء جميل بدليل تلك السعادة التى تغمرنى وأنا أحاول وصفه وذلك بالرغم مما حدث ويحدث فى حياتى، ولروعته تلك يجب فعلا رعايته والحرص عليه.. فرحتى الآن تذكرنى بفرحة غريبة شعرت بها يوم مولد أمل، حين أحضروها إلىّ للمرة الأولى كى أراها وأرضعها، ولم تتكرر تلك الفرحة مع مولد أختها أو أخيها بالرغم من سعادتى بهما وحبى لهم جميعاً.

-مع أنك لا تعرفيننى جيدا لكننى شعرت أنى أحدثك بلا أى مجهود يوشك فكرى أن ينتقل إليك دون واسطة لغة.

-ذلك لأنى أعرفك جيدا وانتظرتك منذ زمن بعيد وبالرغم من اختفاء أى علامة لظهورك فى عمرى إلا أننى لم أفقد الأمل، كنت مؤمنة بوجود قوى فى نفسى معطلة لم تعبر عن كنهها بعد، لأن سر انطلاقها فى كائن آخر تأخر بى العمر حتى التقيت به.. تأكد يا عزيز أننى لا

أؤيدك فى محاولتك لتحقيق طموحك لمجرد الإعجاب، بل لأن ما تهدف إليه من الرقى والسمو ينزع من الإنسان أى تحفظ فى تمنيه وتحقيقه، نحن فى حاجة حقيقية لأن يهتز فى كل فرد منا جانبه الإنسانى المبدع الخلاق.. علينا فقط أن نكتشف أصوب طريق لتحقيق غاياتك مهما كان صعبا.

وجاءت ابنتها هبه تسعى نحوها وهى تبتسم فى براءة وتقول لها

-اليوم تبتسمين يا أمى وتضحكين.

فردت عليها

-لأنى سعيدة يا هبة.

ويبتسم عزيز ويتوجه بحديثه لفايزة قائلاً

-إذا دعوتك للعشاء هل تقبلين أم يسبب لك ذلك أى حرج؟

فتجيبه فايزة متهللة

-أقبل على الفور فقط حدد الموعد الذى يناسبك

وأمضت فايزة تلك الليلة متوترة الفكر والعاطفة تنصت لأصداء حديثهما فى ذاكرتها وما ينفعل له وعيها وشعورها، وأيقنت أن تلك اللحظات التى تهتز بها حواسها هى أعظم ما عاشته من عمر لأن وقدة الحياة شملت كل كيانها.. لقد تحرك الحاجز من أمام مشاعرها حين اهتز لكلمة السر فاندفقت أحاسيسها واندفعت لا تأبه لزمانها أو مسارها

بالرغم من عقل صدق بضرورة الحرص والتحوط لضمان الحياة، ولم يقو عليها سلطان النوم فى ليلتها تلك وذهبت توقظ أمها وتحدثها أحاديث عابرة حتى لمحت الأم رغبتها فى الحديث عن عزيز وانشغالها الظاهر به، ولا تذكر فايزة شيئا مما دار بينها وبين أمها.. إنما كانت فى حاجة لإنسان قريب منها يهدهد إحساسها المتوثب ويطمئن عواطفها الفائرة فلجأت لأحضان أمها حتى سمعت آذان الفجر فنهضت تصلى شاكرة ثم تخط بيدها تلك الكلمات تحاول أن تفسر بحديثها لنفسها مقصد القدر كتبت:

"اللهم أشكرك ما وهبتنى من إحساس رائع لا يمكننى وصفه والذى ملك روحى فاستسلمت له طائعة، ولو كان كل ما قاسيته من ألم قربانا له فإنى أحتمل أضعافه راضية مقابل لحظة من تلك اللحظات التى ذاب فيها كيانى سعادة وفرحة، لقد تفضلت علىّ بنعمتك يا رب ومهما يكن من أمر بعدها فهى تستحق كل عناء ومعاناة وإنى راضية بما قدرته لى من مصير ما بقى لى من عمر فقط أطمع فى كرمك أن تديم علىّ تلك اللحظات بعضا من العمر ولا أقول كله فقد مضى منه الكثير، إننى مضطربة لم أجرب من قبل أحاسيس بتلك القوة والعمق.. رباه ماذا يحدث لى إننى فى حالة نشوة روحية غريبة ولسوف أنهض للصلاة مرة أخرى ربما هدأت أعماقى".

قالت لعزيز بعد أن أطلعته على تلك الكلمات

-كدت أن أمزق تلك الورقة بعد كتابتها، وترددت ألف مرة أن أطلعك عليها فهى تظهرنى ضعيفة وعارية وهو موقف لم أقفه من أحد أبدا.. وبالرغم من هذا التردد وضعتها بين يديك مستسلمة.

وكان وجهها يحمر وعيناها تنبضان نبضا عجيبا وهو يقلب الورقة بين يديه وينظر إليها ثم تلتقى يدها بيده دون قصد وبلا إرادة فتنتقل إليه حرارة عاطفتها. وكانا يجلسان متجاورين فوق سور الكورنيش ينظران إلى مراكب الصيد الصغيرة المنتشرة فى الميناء الشرقى ونسمات الليل تهزها هزا حانيا والموج الخفيف يداعبها فى مرح.. وقال عزيز معقبا

-أما أنا فاستسلمت لوحدتى ليلتها أحاول أن أخترق ستر الزمن وقد طغى عليه كل لحظة قضيتها معك.

قالت وبصرها يتابع إحدى الفلائك الكبيرة يدفعها النسيم بحذر نحو قارب صغير

-لم تحاول الإفضاء بدخيلتك إلى والدتك.

قال وقد لاحظ ما ينشغل به بصرها

-ليست أمى قريبة إلى فكرى لهذه الدرجة.. كما أظنها تلمح شيئا ينمو بيننا وتعارضه وتقاومه من مبتدئه دون أن تفصح.

سكتت فايزة وقالت فى أسى بعد أن اصطدمت الفلوكة بالقارب وعادت تتهادى مع اتجاه الموج

-طبعا يصعب عليها أن تتصور إبنها إلى جوار مطلقة وأم لثلاثة أطفال.. عندها حق. من يلومها إذ تستشعر الأمان لمستقبلك وتباعد عنك أى خطر؟ أنا نفسى أشاركها شعورها بالخوف عليك ولو كانت أحلامى هى الثمن.

قال عزيز فى وضوح وهو يتابع حركة القارب وقد تحرر من تأثير ما حوله من مراكب فطفق يزهو بنسيم الليل وانبساط صفحة الماء

-لم أقابل فى حياتى من آمن وصدق بأحلامى وكأنها حقيقة سواك.. بل إنك مستعدة وقادرة أن تكافحى إلى جوارى بكل إيمانك وقوتك، فهل أفرط فى كل هذا لمجرد هذا السبب الذى ذكرته؟ هل يعقل أن يهبنى الحظ السعيد ملاقاتك فى تلك اللحظة من عمرينا فأعتذر بسبب ما مضى من عمرك أو عمرى.. لولا أن خط القدر خطوطه ما التقينا، ولكن علينا أن نجتاز تلك اللحظات مسرعين ونلتفت للغد فهو ما أنتظره لك معى ودعينا من قشور المجتمع الزائفة.

-أنت تتخطى مصاعب كثيرة بفكرك وضميرك، ولن أقول لك سوى أنى معك فى أى خطوة تخطوها، تأكد من هذا لأقصى الحدود.

-أرغب أن أتحوط بحبك وأستقى منه فهمك فأنت الوحيدة التى أظنها تصدقنى إذا أخبرتك بقرارنا إنشاء حزب سياسى يعبر عن آرائنا وطموحاتنا. إنها المرة الأولى التى أفصح فيها عن هذا القرار لأحد من خارج دائرتنا لأننا لا زلنا ندرس كيفية تنفيذه وتحقيقه، لكن يقينى أن ما فى أعماقى ينتقل إليك بلا جهد من أحدنا بكل وضوحه وصدقه منحنى تلك الحرية.

-أنا فخورة جدا، ليس بك فأنت تستحق ذلك ولو لم أعرفك، وإنما فخورة بنفسى أن ميزتها ويكفى ذلك سببا لفرحتى وسعادتى.. يا سيدى لا أحتمل كل تلك المشاعر المتضاعفة المتدافقة فى نفسى فهل تسمح لنا بالسير قليلاً؟

أخذها من يدها إلى مطعم قريب، ثم قال لها أثناء الطريق

-على فكرة أنا مسافر خلال أسبوع إلى الصعيد لمتابعة بعض القضايا ولى بعض الأصدقاء فى أسيوط سأقضى معهم بعض الوقت.

-هل تطول غيبتك؟

-أسبوعين على الأرجح.. ربما ثلاثة.

-أتمنى لك التوفيق، بالرغم من طول الزمن وبعد المكان وشعور الوحشة ويومى خال منك، إلا أننى أسعد بكل جهد تبذله فى سبيل تفوقك، أنا أعرف بأنى سأكون معك بروحى.

وفى طريق العودة طال صمتها وهى تختزن بذاكرتها كل مشاعر الغبطة والسرور التى أثرت أعماقها كى تتمثلها فى سريرتها كلما آلت لذكرياتها معه، ثم قالت وكأن الواقع ينبه أحلامها

-كنت محقا بضرورة حرصنا على نبتتنا الصغيرة ورعايتها بحذر كى تنعم بالحياة وتتأصل جذورها، كلما تأملتها تمنيت لو أن عمرها القصير وقوتها البادئة تكفيها مواجهة ظروفها، لكننى لا أكتمك خوفى وقلقى عليها.. سوف يواجهنا من حولنا بقسوة لن تعرف حقا لحرية الشعور.

قال عزيز

-لن ننكر على أنفسنا حقنا فى السعادة ولو تمسك من حولنا بالمظاهر الزائفة وتصور أنه قادر على حرماننا.

-إنى مطمئنة لما تقول وإنما أبثك مخاوفى لأحتمى بثقتك وأستكين لأمنك.

وظلت طوال الطريق هائمة حالمة وكأن روحها قد نزعت إلى عالمها الشفاف فلم تعبأ لما يحيطها من مادة فانية، ولم تنتبه ليده وهى تسلم أو أنفاسه وهو يلثم أصابعها، حتى وهو يبتعد بسيارته عن مدى بصرها لم تلحظ ذراعها وهى تلوح له، فهى مشغولة بعالمها الذى لا يعرف المكان أو الزمان تحتضنه فى أعماقها ويحيط بها لا تحده الحدود، وأصرت ألا تتبدد من زمنها تلك اللحظة مهما تزاحمت عليها الساعات والأيام،

فأنزلتها من نفسها منزلة الإيمان، وظلت قى تلك الحالة العجيبة حتى أتت لوداعه قبل سفره للصعيد وهى تقول له مندهشة

-تصور أنك لم توحشنى.. لم أشعر أبدا أنك بعيد عن عالمى، فكنت أراك وأسمعك وأحس بك وقتما أشاء وهذا يعنى الليل والنهار.

قال

-إنها فرحة الروح بلقيا روح أخرى تجاوبها فى عالمها ويندفعا معا حيث لا قيود أو حدود فمن أين تنفذ مشاعر الوحشة؟

-لكنك فى هذه اللحظة توحشنى.

-هى وحشة من نوع خاص لا تؤلم ولا تحزن وإن دمعت لها العين وارتعش الوجدان.

-فسوف تغفر لى دمعة وأنت تستقل قطارك؟

-أحب أن أراها بسمة تعدنى بالانتظار.

-أرجو أن تكتب لى.. أريد أن تزداد معرفتى بك.

-هذا صحيح فأنا أعرفك أكثر، ولابد أن هناك ما تسأله نفسك ولا تجدين له جوابا.. المستقبل مثلا.

-ليس بمثل هذا الإنشغال، فكرة المستقبل لا تأسرنى إلا لارتباطها بك.

-لن اسمح لشيء أن يباعدنا، فقط تذكرى عمر النبتة وما تجدر به من حرص.

وعاشت فايزة الأيام التالية فى غيابه عن عالمها المرئى بينما يطغى تأثيره على وعيها ولا وعيها فى اليقظة أو المنام.. دائما تفكر فيه وعبثا تحاول تحديد لحظة لا تنشغل به فقد تسرب فى كل كيانها.. وبدأت خطاباته تصلها لتصفو صورته فى عينيها أكثر وتوالت مكالماته التليفونية لتحقق لها برهان السمع، وكانت ترافقه فى دنياه كما يصفها فى سطوره وصفحاته ويخفق قلبها لحماسه وهى تنصت إليه فى شغف، ولم تمنع نفسها أن تقص عليه كل ما يدور فى دنياها ولو كان مما تستحى منه، فلقد انمحت بينهما أية حواجز يصطنعها الوجود. فانطلقت بنفسها إليه صورا متعددة مختلفة تنزعها بواعث الروح أو نوازع الجسد، فلم تخجل أن تبثه رغبتها إليه وشوقها لأحضانه ومن قبل تجعل من حبها له سببا للحمد والشكر ودافعا للإيمان.

ولم يكن يمر يوم أو يومان إلا وخطاب يأتيها منه أو ترسل إليه خطابا حتى تحول فراقهما الذى امتد أسابيع إلى لقاء متجدد مستمر لا ينقصه سوى لمس الأيدى ومصافحة العيون، وكانت تبكى بعض الأحيان من فرط هيامها وعاطفتها المتأججة به التى كانت تغذيها خواطرها وأفكاره.. على أنه بالرغم من حديثه المتصل عن طموحه وما يدبره من وسائل

لتحقيقه لاحظت تحاشيه الإشارة إلى أمه أو الحديث عنها فيما يمس مستقبلهما معا وبدأ يتضح لها فى زحمة مشاعرها نحوه قلقها من دور أمه فى الأيام المقبلة.

قالت لها أمها وهى تنصت لقلقها وخوفها

-لا أكتمك أن المسألة صعبة، فأمه شديدة الاهتمام به وقد ضحت بعمرها من أجل تربيته وتنشئته بعد وفاة والده وهو صغير، وطبعا كأى أم تتصور ابنها كفؤا لأميرة ويملى لها عطفها بما تشاء.

-لو كنت فى مكانها يا أمى هل تباركين لابنك زواجا كهذا؟

-وهل يطاوعنى قلبى لحرمان إبنى من سعادة فى متناوله؟ حتى لو أخطأ لا أتخلى عنه.

-أنت أم رائعة.

-هى أيضا أم رائعة ولكن ظروفها مختلفة، فهى لا شك تتمنى سعادته.

-فهناك أمل فى عدم اعتراضها طريقه إلىّ؟

-لا أدرى ما يحدث وقت المواجهة لكننى لا أظنها من الأمهات اللاتى يستسلمن لعطفهن مهما خالف وجهة العقل.

-الأمل إذن أن تعقل وجهة نظره، أرأيت حقيقة خوفى وقلقى؟

-لا تقفزى للنتائج فهو ليس ابنا عاديا وليس رجلا تافهاً.

-لا أريده أن يدفع رضى أمه مقابلاً لرجولته معى فهو ثمن باهظ على ضميره ومشاعره.

-حتى لو تخلى عنك ارضاء لها.

قالت منزعجة

-هو لن يتخلى عنى أبدا، أنا واثقة من هذا ثقتى فى دقات قلبى.. إنما أنا حريصة عليه.

فقالت الأم وقد تحيرت

-قلت لك من البداية أنها مسألة صعبة.

نعم هى كذلك والقلق والخوف من شروطها هكذا فكرت فايزة ولكن بالرغم من هذا أظلتها مشاعر الحب بظلال الأمل ودفقت فى قلبها دواعى الرجاء وحركت وجدانها بالرضا والحمد، والأيام تمر بها لا تلحظها ولا تهتم بها فروحها تهيم فى عالم الخلود. حتى وصلها خطاب ينبئها بموعد عودته وقراره أن يتقدم للزواج بها فور وصوله فطار عقلها فرحا وظلت تدور وترقص وهى تحتضن رسالته وتقبلها وكأنها فتاة صغيرة. لقد انطلق من كيانها زمن لم تجربه ولم تعش فيه فاختلط باندفاع مشاعر قد يتحفظ منها زمن الأنوثة الكاملة، وقررت فى غمرتها أن تتوجه للقاهرة وتقابله عند محطة القطار القادم من الصعيد وتعود معه متأبطة كيانه ملتحمة بوجوده العزيز، يا لفرحتها ستصبح زوجته

ويضمها عالمه وتنغمس فى دنياه الرائعة. ووقفت على رصيف محطة رمسيس تنتظر وصول قطار النوم القادم من صعيد مصر واللهفة تكاد تعصف بنبض فؤادها وهى تتخيله مفاجأ بحضورها ملقيا نفسه بين ذراعيها بشوق وحنين ثم يعودان معا إلى الإسكندرية وهى جالسة إلى جواره حسا ومادة وليس أملا ورجاء، وتحاول أن تتذكر ملامحه مبتسمة وهى لا تكاد تصدق أنها نسيتها وتتمنى لو تتأكد مما بقى منه فى ذاكرتها.

وبدأ الركاب ينزلون من عربات القطار وعيونها تراقبهم بحثا، وقلبها ينتظر نداء خفيا يسبق أى نظر، لكن النظر ظاهرا أو خافيا لم يهتد إليه، ونزلوا جميعا وتفرقوا من حولها دون أن تعثر عليه، وظلت واقفة والحزن يتسرب فى مشاعرها بينما بصرها يتابع حركة القطار تاركا المحطة ومعه الأمل، ولم تبال بدمع انساب من عينيها وظلل إبصارها بظلال اختلطت بالأشياء فكدرت الرؤية، ثم أفاقت لصوت العقل وهو يهتز فى رأسها ويحرك إدراكها برفق.. ربما لم يتمكن من اللحاق بهذا القطار أو اتخذ وسيلة أخرى للعودة فهو لم يعرف بانتظارها ليرتبط به. وبدأت نفسها تهدأ وتسكن وهى تتخذ طريق العودة إلى الإسكندرية ثم ابتسمت فى النهاية ساخرة لما سببته لنفسها من انزعاج بلا داع مقبول، بينما هو قد يكون بانتظارها أو محاولا الإتصال بها، لكنها أسرعت

فمنعت على خيالها أن ينساق مرة أخرى فى ضلاله، وهى أحوج ما تكـون لواقعها الملموس.

وعادت لمنزلها وظلت تنتظر حضوره ولـو صوتـا مـن عالمـه البعيـد لكن اليوم انصرم دون أن يتحقق المنتظر، وفـى اليـوم التـالى اضطـرت للخروج صباحا لقضاء بعض حاجياتها العاجلة وعادت ظـهرا متوقعـة أن تسمع ما يطمئن خواطرها، لكن خادمتها أكـدت أن جـرس التليفـون لـم يرن منذ الصباح، ودعت ربها بكيانها ألا يكون قد أصابه مكروه وحاولت أن تشغل نفسها ببيتها، وفى أثناء الغداء رن جـرس التليفـون فـانتفضت هارعة إليه لتسمع صوته آتيا بنبرة غريبة على أذنيها كأنها تحمـل النذيـر، وحملت التليفون إلى حجرتها وأغلقت بابها وأسلمت وجودها إليه.

كانت فايزة برغم خوفها على حبها وقلقها على مصيره عظيمـة الثقـة فى عزيز وقوته، مطمئنة لنواياه وإرادتـه أن يحولـها واقعـا سـعيدا، وكـان أقصى ما تظنه يصيبها بعض التأجيل أو التأخير لحيـن الاسـتعداد لكـن خطابه الأخير حمل إليها نيته صريحة وقـراره واضحـا محـددا واسـتعداد التنفيذ كاملا مهيئا، فكيف يقبل عقلها تراجعه وتصدق أذناها رنين صوته القاسم الناهى كأنه قاضى لا يعنيه غير نصوص القوانين يحكم بها غـير مقدر على من يصدر حكمه، لا يتأمل سـوى حيثياتـه يكيّفـها فـلا تنقضـه

محكمة عليا. هكذا ثم ترفع الجلسة وتعود منصة الحكم خالية.. وكان يقول

- وضعت أمى نفسها فى كفة وزواجى بك فى الأخرى، وأخشى إن بدأت بظلم أمى ألا أعدل فى حياتى أبداً، لم أكن أقدر أن سعادتى معك سوف تتعسها إلى هذا الحد، وكيف آمن نفسى عليك لو فرطت فى رجائها؟ إنها لم تطالبنى بالوفاء لعمرها الذى وهبته لى ولكن عمرى أنا طالبنى بهذا الوفاء، وما كان يمكننى استجداء عقلها وفهمها فهى لم تنصت لهذا العقل حين منحتنى صحبتها خالصة وأحاطت نموى وازدهارى بوحدتها وذبولها. لكنى ألتمس عقلك وفهمك أنت ذلك الذى تنتقل إليه خواطرى بلا واسطة لغة والذى تعلم صاحبته تمام العلم قدرها وقيمتها الغالية فى نفسى.

وشعرت بلسانها يتحرك ليقول

- أتعنى أننا لن نلتقى أبدا؟

فقال بعد صمت وكأن روحه تنتزع من جوفه

- لا يوجد فى نظرى بديل، فاللقاء سيزيدنا شقاء وبؤسا.

- لكنك أخبرتنى فى خطابك أنك رتبت حياتك على وجودى فيها فكيف يمكن محو كل شىء؟

-كنت صادقا فى كل ما أخبرتك به.. أرجوك حاولى أن تفهمى، إن لم تقدرى ما أنا فيه من عذاب وترغبى فى مساعدتى فسوف أهجر تلك الحياة البائسة.

وناضلت بكل قوتها لتفهم ما تتردد به أعصاب السمع فى رأسها ثم سقطت من يدها سماعة التليفون وذهلت عيناها عما يحيطها وأصابها دوار، لكنها قاومت ونهضت، وأسرعت خارجة من منزلها غير ملتفته لتساؤلات أمها ونظرات أبنائها، وكما تفعل فى شدائد أيامها انطلقت بسيارتها إلى طريق الكورنيش تقودها الأيدى والأقدام أما العقل والقلب فذاهلين عن واقعها مضطربين بتصديقه وقبوله، واقتربت دون أن تدرى من الميناء الشرقى حيثما قضت أسعد لحظات عمرها وأخذت تتابع الأمكنة التى جلست إليها معه وتقتفى ببصرها مراكب الصيد الصغيرة التى كان يهوى ترديد أسمائها، حتى وجدت نفسها أمام قلعة قايتباى واستغرقها الحزن بذكرياتها القريبة معه وهى تنعم برؤية مستقبل مشرق بالسعادة والسرور، تلك الذكريات التى غيبها فى أعماق الزمن مجرد حديث قصير فأمست كتلك القلعة وجودا لا وجود له، وظلت تبكى حتى كاد أن يحترق قلبها، وزهدت فى الحياة وتمنت لو تموت ليستريح قلبها فقد انطفأ بريق السعادة فى طواياه، ذلك البريق الذى استضاءت به نفسها لحظة واحدة فى عمرها تمنت لو تستديم.

وفزعت أمها مما أصابها من ذبول اليأس واستهولت ما فعله عزيز بعيدا عن أى تصور أو ظن واستعصى عليها فهمه أو قبوله فحاولت أن تتهمه بالنكوص والتردد وتمس قدر رجولته، لكن فايزة أبت عليها تلك المحاولة ودفعت عنه الإتهام قائلة

-إنه رجل حقيقى وما فعله لا يقدر عليه كثير من الرجال، فبالرغم من حبه القوى الذى لا أشك فيه لحظة تصدى لنفسه فيما تتمناه حفاظا على كرامة أمه وقدرها مهما كان رأيى فيما فعلته بى فتلك وجهة نظرها للمحافظة على وجاهة مستقبله.. لكننى حزينة يا أمى بشكل لم أشعر به أبدا من قبل، وإنى لأضحى بكل ما أمتلكه نظير هناء كمثل هنائى معه.

وأطرقت الأم ساكنة حيرى، ثم قالت وقلبها يتفطر من أجلها

-خير ما تفعلين أن تسافرى لزيارة أخيك واصحبى أولادك أو من شئت منهم معك.

غمغمت فايزة

-نعم أنت على حق فقد جاء دورى فى الهروب.

وواستها أمها

-الهروب أحيانا أفضل الحلول.. لمن يستطيعه.

وسافرت فايزة إلى "دبى" حيث كان يقيم فهمى الذى رق قلبه لها وهو يتأمل بؤسها وشقائها وانطواءها الذى لا يألفه منها، ولما سألها مستعطفا عن السبب أجابته

-لا شىء.. مزيد من طعنات القدر الغادرة.

فقال مواسيا

-لشد ما تغير الأيام من طبائع الإنسان.. إن كنت تفكرين فى إسماعيل يمكننى التوسط بينكما، وأولادك أحضريهم إلى هنا إن كان ذلك يريحك.

واغتصبت ابتسامة مرة ساخرة وهى تقول

-لا زلت ترى فى إسماعيل ما يستحق التقدير بالرغم من كل ما قصصته عليك؟

فأجابها

-تربية الأولاد مهمة صعبة وحرمانه من هذا الواجب ظلم لك ولهم أيضا.. تقديرى له لا يعظم حبى لك، ودور الرجل هام فى تلك الفترة من حياتك ألا يؤكد ذلك حزنك وانشغالك الدائم؟

-سأرتب لإحضار الأولاد لكننى أريد مسكنا مستقلاً وعملا مناسبا فالوقت الفارغ قاتل للهمة.. أما ما ذكرته عن الرجال فهو لا يعنى إسماعيل فى شىء.

قال بعد صمت قصير

-كل ما تفكرين فيه ممكنا.. ما رأيك فى الانضمام لشركتى بنصيب فى رأس المال سوف يعطيك هذا حقوقا لإدارة الشركة معنا وفى نفس الوقت نوسع نشاطها؟

أجابته ونفسها مشرقة لأمل العمل

-لا زلت تعرف كيف تزيح الهم عن نفسى.. يعجبنى اقتراحك.

وعلى الرغم من أن حياتها الجديدة أخذت تملأ فراغ أيامها إلا أنها فى أعماقها ظلت تفكر فى عزيز وتستحضر انفعالها به فى وحدتها وسعادتها لوجوده فى ماضيها القريب.. وفى صباح أحد الأيام استيقظت وخيالها يقبض على ما تبقى من حلمها معه وكأنما كانت يدها حقا فى يده وأذنها منصتة لصوته وطرفها سارح فى صورته، وجففت دمعها وقد أصرت أن تحرر نفسها من أغلال الحلم فلا تقاوم أدنى رغبة إليه، ووجدت نفسها تطلب رقم تليفونه بمصر، وآتاها صوته طاويا المكان البعيد ملحيا فروق الزمن ماضيه وحاضره، قالت وهى لا تكاد تصدق أنه محدثها أو أنه لا زال موجودا فى واقع الحياة

-عزيز؟ أحدثك من عند أخى فى "دبى"، كيف حالك.. ووالدتك؟ شعرت برغبة شديدة لمحادثتك والاطمئنان عليك، أرجوك لا تفكر فى شىء اهتم بنفسك ومستقبلك فأنت أهم عندى من كل شىء.

-كيف حالك أنت يا فايزة؟ علمت أن أولادك سافروا إليك.. كنت على إتصال بوالدتك لأفسر لها ما حدث عسى أن تنقله إليك بعطفها وقد استعصى علىّ بقسوتى.

-لا عليك من شىء، دع الأمر لله.. أليس هناك من جديد فى حياتك يسعدنى؟

-سوف نعقد اجتماعا فى الأسبوع القادم لمناقشة البرنامج السياسى لحزبنا المقترح وموعد إعلان لجنته التأسيسية نأمل فى موافقة لجنة الأحزاب بمجلس الشورى ليتسنى لنا الدخول فى الانتخابات القادمة.

-ربنا يوفقك.. هل هناك ما يمكننى تقديمه.. أى شىء؟

ولما تأخر فى الرد عليها قالت

-لا تشغل بالك كثيرا كفانى أن سمعت صوتك واطمئن عليك قلبى.

-ليس هناك ما أتمناه فى هذه الدنيا قدر أن أراك فى تلك اللحظة.

وشعرت بيدها ترتعش بقوة وقلبها يقترب من جدران صدرها، ومضت دقائق طويلة قبل أن تنتبه لانتهاء المكالمة، وأعقب تلك الساعة ساعات ممتدة قضتها فايزة بسيارتها فى طرق طويلة ممهدة لا تنتهى وهى غير واعية للمكان أو الزمان.

وصباح اليوم التالى أرسلت إليه برقية نصها: "يمكننى أن أكـون فـى مصر خلال أربع وعشرين ساعة لو كانت تلك مشيئتك".

وآتاها صوته من خلال أسلاك التليفون بمنزلها فى اليوم التالى

-فايزة؟

نعم يا عزيز.

-كيف حالك يا حبيبتى، وصلتنى برقيتك، حسبت ما فعلته قـاض بـلا ريب على مشاعرك نحوى، لكننى عدت ليقينـى باتسـاع عقلـك ورحابـة قلبك، لا أجد ما أعبر به وصفا لنعمة ظهورك فـى حيـاتى غـير أن أحمـد الله عليها.

-كان لابد من وجود أسباب لها وجاهتها فى نظرك لتفعل ما فعلـت.. ثقتى بتفكيرك واطمئنانى بلا حدود لحكمتك لابد أن يجعلنـى لجـانبك على الدوام مهما فعلت.

-أرجو ألا يكون الحب وحده سبب هذا التقدير.

-بل هذا التقدير سبب كل هذا الحب.

-سوف أكتب لك خطابا أشرح لك فيه أسباب مـا حـدث، أخشـى إن حضرت إلى مصر هذه الأيام أن تشتعل فى نفسى الثورة من جديد، تلـك الثورة التى اندلعت وكادت تقضى علىّ.. تواجـدك بـالقرب منـى سـوف يشعلها مرة أخرى، هذا بالرغم من اشتياقى إليك.

وسكتت فلم ترد فقال لما تأخرت عليه

-ألا زلت على الخط

فأجابته مسرعة

- نعم، وسأظل أنصت إليك طوال عمرى، أنا فى انتظار رسالتك لا لشىء سوى أنها آتية من عالمك.

ووصلتها رسالته بعد عدة أيام على صندوق بريدها، ولم تنتظر وصولها لمنزلها لتقرأ على مهل وإنما فضتها للهفتها وهى تقود سيارتها، وكلما استوقفتها إشارة مرور تابعت، قراءتها حتى تغيب بين سطورها عن كل ما حولها ثم تنبهها أبواق السيارات من خلفها وترغمها إلى واقعها وهى ذاهلة. وظلت على تلك الحال حتى انتهت إلى بيتها وهرعت إلى حجرتها وأغلقت الباب دون العالم فهى تنتمى فى تلك اللحظات لعالم سواه، وألقت بنفسها على السرير وهى تحتضن رسالته وتقبلها والفرحة بمادتها تصل بها لحد الانتشاء. ولم تبدأ فى فهم محتواها إلا بعد القراءة العاشرة. ومضت عليها عدة ساعات وهى هائمة فى دنياها ثم بدأت تقتفى ما تعرضه سطورها وإن كان لم يغير ما فهمته منها قرارها النهائى أن تتوجه إلى مصر كى تراه بعينيها وتلمس يداها يديه وتحيطه بأحساسيها التى تغمرها وتكاد تغرقها.

كان يشرح لها فى رسالته أن مقاومة والدته لزواجه بها لم يكن السبب الوحيد لتراجعه وإن كان أقوى الأسباب، وإنما زاد عليه تقدبره للفارق المادى بينهما وصعوبة تخطيه خاصة عند مواجهة الواقع اليومى لحياتهما معا، فهو من جهة يصعب عليه أن يأتى بها لتحيا مع والدته فى مسكنهما ومن جهة أخرى لا يقبل الإنتقال لبيتها ليعيش معها فى سكن ليس من صنعه ولا يناسب دخله وقد حاول كسب رأى المخلصين ممن استنصحهم وقد أقبل على تنفيذ قراره فعارضوه وأكدوا له ضرورة التراجع واستبصار الحقائق من حوله. وقد أسلمته تساؤلاته وحيرته لعذاب شديد فى مواجهة حبه الجارف لها الذى تخطى كل حدود اصطنعها منطقه وتقديره، وكان لابد من تلك الوقفة المفاجئة والفرملة الهائلة لحركة مشاعره والتى أسلمته لشقاء لا يوصف أثره وقوته. وانتهى من كل ذلك إلى رجائه ألا تفكر فى زيارة مصر فى الوقت الحاضر لأنه لن يحتمل ما مر به مرة ثانية ولا يضمن لقلبه أن يستسلم لعقله من جديد وهى إلى جواره قريبة مهيئة، حينئذ ستتهاوى كل المحاذير وتنجرف.. ووعدها فى نهاية رسالته بالاتصال بها كلما أمكنه.

وبالرغم من تقديرها واقتناعها بمعنى السطور إلا أن قرارها بالسفر لم يهتز ولم تستطع حتى أن تراجع نفسها فى جدواه، إلى أن اتصل بها للاطمئنان على وصول خطابه فقالت له

-لقد أدخلتنى جنتك مرة أخرى وكنت أوشكت أن أصدق أنى لن أعبر بابها أبدا، لقد أمدتنى مشاعرك بفيض جديد من الحياة يطيل العمر ويزهيه.

قال لها ملاحقا

-أرجو أن تفهمى وجهة نظرى فى ألا تحضرى إلى مصر فى الفترة الحاضرة فالجرح لم يزل غائرا.

سكتت قليلا ثم قالت

-كنت سأحضر لأراك فقط لمرة واحدة وأعود.. لن يعرف أحد ولا أطلب شيئا أكثر من هذا.

-المشكلة أنى أريد إعطاءك كل شيء وإنما أخشى أن يتبخر ويتبدد قبل أن تدركى وجوده.. أرجوك.

-لن أسبب لك ألما.. سأفعل ما تأمرنى به.

وبرغم إلحاح الرجاء ورضوخها اللحظى له وجدت نفسها فى الطائرة المتجهة إلى مصر بعد حديثه معها بأيام قليلة وقد فسرت لأخيها سفرها المفاجيء بضرورة تواجدها فى مصر لإتمام بعض التحويلات المالية. واستقبلتها أمها بفرحة تغلب عليها مفاجأة الحضور ولما حاولت أن تبرره لها كما فعلت مع أخيها أطالت أمها النظر فى عينيها غير مصدقة مما أرغمها أن تعترف بالسبب الحقيقى وهى تلوذ بكنفها وتقول

-صورته لا تفارقنى فى نهارى وليلى.. أحبه بجنون ومهما حاولت التخلص من طيفه لازمنى بإصرار فأتوسل إليه أن يدعنى قليلاً لأستريح فيبرز لى فى حلمى قاهرا معذبا.. أرجوك أن تساعدينى.

ربتت الأم بحنان على ابنتها التى جاوزت الثلاثين ورددت فى يأس

-يؤسفنى أنى بلا حول ولا قوة، عليك أن تتصرفى بنفسك، إنه يحبك ربما أقوى وأعنف منك لكنه لا يملك شيئا إزاء منطقه.

وفى صباح اليوم التالى كانت أكثر تماسكا فرفعت سماعة التليفون وطلبته وهى تقاوم يدها من تصور المفاجأة وجاءها صوته

-صباح الخير.. من؟

-فايزة، هل نسيت صوتى؟

-إنما كان رنين الجرس ينبئ بمكالمة محلية لذا ظننت.. هل أنت..

-نعم أنا فى الإسكندرية أحدثك من بيتنا على بعد أمتار منك.. أليست مفاجأة سارة؟

-حمدا لله على سلامتك.. خيرا كيف حال أولادك؟

-كلهم بخير.. جئت لأراك ثم أعود لا أكثر من ذلك.. هذا لو سمح وقتك.

قالتها وهى تتمنى أن يسمح بذلك كل لحظة من عمره، ولم يكن جوابه بأقل من هذا الأمل.

-طبعا يسمح لو كانت أخر لحظة فى حياتى سوف أقابلك الآن.

-سأنتظرك بشقتى فى المعمورة.. لا زلت تذكرها؟

-كيف أنساها يا فايزة وقد شهدت مولدنا من جديد.

وانطلقت تستعد لاستقباله وهى فى غاية من الشوق والسعادة وكل حزمة من الأعصاب فى جسدها تضطرب بشكل يميزها، ولم تنتظره طويلاً، وفتحت الباب بمجرد أن شعرت بوقع أقدامه يقترب، ثم هالها رؤية وجهه وقد جهد ونحل والشقاء ينضح من عينيه، وأغلقت الباب وهى تسأله والدلال يغلب مشاعرها

-هل أسعدتك رؤيتى؟

ولم يجب فاستأنفت تقول

-سؤال لا يستحق الإجابة، أعرف هذا إنما أحب صوتك.

ثم أضافت وهو غارق فى صمته

-أرجو أن تعذر الفوضى فى الشقة فلا أحد يأتيها شتاء، عموما أحضرت لنا بعض المشروبات ويمكننى تجهيز شاى أو قهوة لو أحببت.. هل تعطلت أعمالك بسببى هذا الصباح.. إذن فاغفر لى.

وكان ينظر إليها فى تأمل عجيب وكأنه يشهد حلما من أحلامه يتحول حقيقة يمكن لمسها، كأنما كان سفرها وغيابها عن عالمه المرئى دليلا

على أن مشاعره توجهت لبنات الأطياف فلما حضرت اليوم نقضت الدليل وبرهنت على أن حبه كان فى عالم موجود.

وتركته للحظات ثم عادت تحمل حقيبة استخرجت منها مظروفا وهى تطلب منه أن يغمض عينيه استعداد لمفاجأة، ولما فتح عينيه رأى عددا من صحيفة القبس ويدها تشير إلى مقال سياسى منشور باسمه فى إحدى صفحاتها، وذكرته بأنه أهداها هذا المقال لتطلع على جانب من فكره فيما يختص بحرية الرأى وقيمتها فى بناء المجتمع المعاصر، وقد فعلت هذا باتصالاتها هناك كمحاولة لتعرف الناس به، ثم عادت تحدثه قائلة

-هل تذكر جلستنا فى تلك الشرفة وحديثنا.. طعم السعادة الذى شعرت به لحظتها لن أفرط فى ذكراه أبدا.. نبتتنا المتشوقة لكل رعاية ممكنة.. أنت لم تعرف أننى ذهبت لمقابلتك فى القاهرة أثناء عودتك من الصعيد حين وصلنى خطابك بعودتك وقرار زواجنا.

ولم يحتمل عزيز كل تلك المعاناه المصبوبة فوق عزيمته صبا. فاقترب منها متوسلا بكلمة واحدة

-احضنينى.

لم يجرب طعم الحنان والعطف كما منحته أعطافها ولم تشعر بمتعة العطاء كما شعرت بها ورأسه فوق صدرها قريبا من قلبها تصله دقاته واضحة المعنى والهدف.

وبعد دقائق غير محسوبة فى نطاق الزمن قالت برقتها البالغة

-كم تمنيت لرأسى أن تستند فوق صدرك وهى باكية شاكية تتهمك بالقسوة حينا ويعذبها حبك معظم الأحيان.

قال بعد قليل

-أعرف تقديرك لما عانيت وأنا أدمر حلمى بإرادتى، لكنه يسير لما واجهته فى واقع الأمر، حتى هذه اللحظة لم أسترد عافيتى النفسية لهذا كان رجائى ألا تحضرى إلى مصر هذه الأيام.. لم يكن أبدا زهدا فى رؤياك.

-أنا مستعدة لتخطى كل شىء نحوك مهما كان غاليا، متلهفة لجوارك بلا أدنى تردد أو حذر، لكننى أعرف كم تكون مبادؤك ثمينة عندك لا تقبل التفريط، وأعرف ما لمنطق حياتك من أثر هائل فى سلوكك.. نعم أعرف وعورة طريقك إلىّ، أما أنا فلا يهمنى أى شىء سواك.

-أنت لا يهمك شىء لأنك تأمنين حياتك بتلك المبادئ التى أستمسك بها وأحفظ منطق حياتى، تعلمين أنك لجوارى مطمئنة لأننى لا أظلم أو أخون، فكيف يتطور شعورك حين أتخطى كل ذلك إليك؟ بم

ستحدثك نفسك حين أبدأ بظلم من حولى.. لابد أنك ستنتظرين دورك يوما ما، وصدقينى أنى لا أستطيع ذلك حقيقة وليس لمجرد الحذر من مخاوفك.

ثم نهض واقفا وهو كاظم لانفعاله كأقسى ما يكون، وقال

-ماذا تنتظرين منى يا فايزة وأنت تندفعين نحوى بهذه السرعة لا تبصرى فى طريقك سواى، أن أدعك تصطدمين بفراغ مخيف؟ أن أتلقفك بكل الحرص ثم أردك عائدة إلى حيث أتيت؟ أن أندفع معك لطريق جديد لن نعى فيه كيف تحولنا إليه وبم ضحينا لنكون فيه؟ صدقينى فأنا لا أعرف الإجابة فى تلك اللحظة ولو تركت نفسى تسلك طريقها بهواها ورغبتها لاصطحبتك إلى المأذون فورا بلا أدنى تريث.

-دعنا نفعل ذلك، دعنا نحيا حقيقة توحدنا ليوم واحد وليكن ما يكون فذلك أرحم عندى من مواجهة المبادىء وحساب المنطق والمعقول، تحرر من ذلك السجن الذى يعيش فى داخلك ربما تفرغ نفسك حينئذ لملء السعادة والفرحة والحب، صدقنى فما ينتظرك حينئذ غير مسبوق.

-لهذا السبب ذاته أحتمى بمنطقى وعقلى، فالقوى داخلى أن انطلقت بلا مبادىء لن يغلو شىء أمام اندفاعها وأنا فى أعمق أعماقى أخشى الله.

ومضى بعض الوقت صامتين ثم قالت لتخرجه من حيرته

-هل سنتعشى معا الليلة سأقبل دعوتك إلى أى مكان تختاره.

-الليلة مرتبط بمواعيد هامة يصعب الإعتذار عنها فى هذا الوقت القصير.

-هل تظن أنك ستفلت منى بسهولة؟

-صدقينى إنها ليست حجة أسوقها..

-متى إذن ترى وقتك مناسبا؟ أحب أن أذوب فى هواء الإسكندرية المنعش بتباشير الشتاء.

-بعد غد يناسبنى.

-اتفقنا، سوف أنتظرك هنا السادسة مساء.

وتركها فى حالة تختلط فيها الفرحة بالخوف، الفرحة بلقياه وإحساسها الغريزى أنها حولته عن منطقه الصارم إلى حبها وهواها القديم وأنها لن تفقده كما حدث من قبل، والخوف الذى يلازم دائما أملا يقترب الإنسان من تحقيقه أو خوف المجهول.

وقضت اليوم التالى فى بيتها مع أمها وهى منطلقة باشة مقبلة على الحياة تنتظر شروق يوم موعده فقد قررت أن تذهب من الصباح إلى المعمورة لتقضى ساعات النهار فى انتظاره فهى تعشق حتى انتظارها له مهما طال.. ووجدت بانتظارها خلف الباب مظروف كتب اسمها عليه،

ورجف قلبها وهو يفسر خط عزيز دون سواه، وجلست على أريكة مجاورة للباب وفتحت الخطاب وأقسى ما تخشاه أن يكون قد أجل موعده، فقد تعاظمت رغبتها للقياه اليوم وتعذبت بها، لكن عينيها وهى تتابع السطور لم تصدقا كلمة واحدة. ولو صدقت لكانت نهايتها.. شىء واحد يحفظ تماسكها تلك اللحظات أن تعتبر المعانى التى تنقلها الكلمات لرأسها مجرد غباء أو نوع من الهزل الثقيل أما حقيقته فمستحيلة. كانت الرسالة تقول: "ليتك انصعت لنصحى وامتنعت عن الحضور فقد انمحت فى وجودك إلى جوارى اليوم كل محاولة لإسعاف نفسى من شقاء حبك، ولو تأخرت قليلا معك لتبرأت من أى منطق وانطلقت معك ولو إلى هلاك.. ويقينى أن هذا ما سوف يحدث لو حضرت لملاقاتك بعد غد، لم أستطع الصبر حتى موعدنا وإخطارك مواجهة فالقوة المطلوبة لتنفيذه لا أملكها وكان لابد أن أتخذ قرارى وأخطرك به فورا وإن كنت لا أعلم متى تحضرين إلى هنا وتعثرين على رسالتى.. واجبى نحوك يحتم علىّ الحفاظ عليك من عنفوان عاطفتنا واندفاعها الشديد، فحين تؤكدين استعدادك للتخلى عن كل شىء وتخطيه فى سبيلى يتضاعف حرصى وتتفاقم مسئوليتى وقد أمسيت أجابه نفسين قويتين معا تريدان بكل ما منحتهما الحياة من دوافع شيئا واحدا.. كان على ضميرى أن يتوسل خاضعا لعقلى أن يبحث عن مفر

وكانت الحقيقة الثابتة أمامى أننا إذا فقدنا الضمير والعقل فسوف نودع من بعدهما كل هذا الحب، لذا أرجو منك أن تسألى الله أن يمنحنى الصبر على فراقك وأنت أحب من يكون إلى قلبى وأقرب ما تكونين إلى روحى، ومن غيرك سيفهم ويقدر ويعرف ما خضته من صنوف الشقاء؟ امنحينا وقتا كافيا يسترد كل منا عافيته لنرى أوضح ربما وجدنا سبيلاً للحق، وحتى أساعدك من جانبى لا أكتفى بكل القسوة على نفسى بل سوف أقسو عليك لأريحك من عناء المحاولة، سأسافر من غدى إلى مكان بعيد لا أعرفه حتى تلك اللحظة وسأظل به زمنا ما، إذا لم أتمكن من إنفاذ ما أنويه وضعفت عنه فعلى الأقل قد قمت بمحاولة.. حينئذ تعرفين ما سيكون".

ولم تقبل كلمة واحدة مما كتب، لم ينفعها ذكاؤها واتساع إدراكها ولم يشفع فهمها له، وأسرعت إلى التليفون تطلبه ربما تأخر عن إنفاذ ما خطط له من جرم فى حقهما فتثنيه وتعيده لما ترتأيه من صواب، لن تدعه يحطم أملها فى آخر لحظة، لن يكون عزيز شيئا يصعب عليها مناله مهما كان، وآتاها صوته

-من؟

-فايزة، موعدنا فى السادسة كما وعدت ولن أقبل أى اعتذار.

- لقد وصلتك الرسالة إذن.. لو تـأخرت دقـائق مـا أجبتـك لأنـى فـى طريقى إلى القطار.

- لم أسمع شيئا ولا أفهم كلمـة ممـا سـطرت، أنـا بانتظـارك حسـب موعدنا هذا هو الشى ء الوحيد الذى أعرفه الآن.

وأنهت المكالمة فلم تجد فى نفسها القوة الكافية لانتظـار قبولـه أو نفيه، لقد تصدت له بكل ما فى عالمها مـن ذاتيـة وروح نـافذة المشـيئة، وكانت على يقين أنه سيأتى فى موعده فهى تعرف جيـدا أثـر حبـها فـى قلبه.. لن يتردد فى الإستجابة لها مهما ناؤته نفسه ولن تتركه هـذه المـرة أبدا، فهو لها مهما دلل المنطق والعقل على عكس ذلك، سوف تعـرض عليه كل ما تملكه وتهبه له لو شـاء، سـوف تمنحـه كـل المشـاعر التـى يتجاوب لها كيانه كبشر، سوف تتخذه أبا وابنا، أخا وصديقا، زوجا وحبيبا ففيه عالم هؤلاء ويزيد وهى راضية به عن الدنيا وما فيها.

ومرت الساعات عليها وتلك الأفكار تهدهد عقلها وخيالها وتسـتبقى فى نفسها الثقة واليقين، وفجـأة تطلعـت إلـى سـاعة الحـائط فوجدتـها جاوزت السادسة بل تكاد تقترب من السابعة ولم يحدث أبـدا أن تـأخر عن موعده أكثر من دقائق وهالها ما يعنيه ذلـك فقاومتـه بـأعذار الطريـق ومعوقات غير منظورة، لكن الساعة التى تحركـت عقاربـها بسـرعة غـير عادية مشيرة إلى الثامنة أكدت لـها أنـه لـن يـأتى اليـوم وأنـه فـى تلـك

اللحظات التى تنتظر مجيئه قد انسحب من عالمها إلى حيث لا تعرف تاركا اياها لشقائها وحيرتها وخوف اللحظة التالية.

ولم تصدق أن هذا يمكن أن يحدث لها، أن تقدم لإنسان كل ما تمتلك فى هذه الدنيا طائعة مختارة فيهملها ولا يعبأ لها، تتقدم له بكل الحب الذى تعرفه ويمكن أن تعرفه امرأة فيكون نصيبها الوحدة الحاضرة بلا أقل مؤانسة أو مواساة.. ليس لأحد هذا الحق أبدا مهما يكن.. وانفجر كل ما تلاطم فيها غضبا وسخطا واندفعت أعضاؤها تلبى منها كل نداء للتدمير والتحطيم فاستخرجت حقيبة صغيرة كانت تودعها خطاباته وهداياه وتعتبرها أغلى ما تمتلك، أفرغتها مما فيها واندفعت تمزق وتحطم وتدوس بأرجلها وتبعثر فى كل اتجاه.. هذا الرجل لا يستحق منها أية عاطفة ولا حتى الرثاء سوف تمحو من حياتها أى أثر له ولسوف تبتر من عمرها كل أيامها معه وتنسى إلى الأبد وعده به. وبكت كما لم تبك فى حياتها قط وكلما استشعرت من قلبها الرفض لنداء الغضب والتمست فى أعماقها ثبات حبها له واستقراره بلا أى اكتراث زاد بكاؤها وتعاظم حزنها.

وغادرت مصر بعد عدة أيام إلى حيث أولادها وأخيها وأعمالها وقد عقدت العزم أن تتصدى لقدرها المحتوم، وكلما تذكرت طريقها إلى صالة السفر بمطار القاهرة وهى تتلفت خلفها بظن أنه قد لحق بها فلا

تجده ويسيل دمعها بالرغم منها.. تدرك كم هو مطلوب منها للتصدى لهذا القدر.

ومضت شهور قبل أن تصلها رسالة منه ثم وصلت ثانية وثالثة وفى كلها يهتم بشرح وجهة نظره باستفاضة ووضوح جديد ينبئ عن استعادته لحيويته ولياقته العقلية والنفسية. وكانت قد قصت على أخيها مجمل هذه الأحداث بعد عودتها إليه مغمومة مكروبة وكان يستمع إليها وهو يبتسم وأحيانا يضحك كعادته دائما حين تأتيه بمشكلة من مشاكلها وقد تصورت أنه استحال حلها، ولما انتهت من سردها سألته فى غيظ

-ما يضحكك بذمتك، ألا أقبل عليك فى أمر يخصنى إلا ويكون رد فعلك ممزوجا بسخرية؟

أجابها

-- تصورى حين فسرت لى سفرك المفاجئ بإتمام بعض التحويلات المالية ظننت أنها حجة لمحاولة العودة إلى الماضى فطلبت إسماعيل بالتليفون واقترحت عليه مقابلتك للسؤال عن أولاده.. لكنه لم يصدقنى أن موقفك منه قابل للمراجعة، بعد ما قصصته علىّ الأن أعتقد أن من حقى أن أضحك للمفارقة.

ثم أضاف جادا

-لكننى حقيقة متألم لما أصابك من أحزان، وإذا كنت تقبلين رأيى فما فعله عزيز يستحق عليه الإحترام.

سألته مندهشة

-الإحترام لما سببه لى من عذاب؟

أجابها

-هناك يا فايزة أمور قد لا تلحظها المرأة بسهولة كما يهتم بها الرجل فى علاقتهما معا، وحين تلحظها لا تصدق لها هذه القيمة عند الرجل، كم يكون فى تقديرك دخل عزيز كمحامى حر فى مصر غير مشهور؟

سكتت قليلاً وأجابت

-ربما ألف جنيه فى الشهر.

-هذا على أقصى تقدير.. اخبرينى كم تنفقين شهريا للمحافظة على مستوى معيشتك من مسكن وسيارة وملابس وغيره.

ولم تجب فالذى يقصده واضحا فاستأنف يقول

-ليس من الهين أن يقبل رجل أن تنفق عليه زوجته، ولو ضحيت بالفارق ورضيت بالعيش معه فلن يكون منطقيا مع ثرائك ولا هينا عليكما، فهل فكرت فى هذا بصرف النظر عن موافقة أمه من عدمها؟

-أنت إذن لا تجد لنا فرصة على الأقل فى الوقت الحالى سواء لهذا السبب أو غيره.. هل تلحظ أنك برأيك تقترب مما كنت تعارض فيه والدنا ونحن أصغر سنا.

-ربما كان ارتباط الرأى بالسن أقوى مما يظن المرء ولكن أليس هذا أمرا طبيعياً؟

وسكتت فايزة تفكر ثم سألت أخاها

-يعنى لو تغيرت الظروف المحيطة بنا أمكننا تحقيق ما نشاء؟

-إلى حد ما تسهل الأمور، لا تنسى أننى أتحدث عن إنسان لا أعرفه جيداً.

-أما أنا فأعرفه حق المعرفة.

وأعانها تقييم أخيها على إمعان النظر فيما كان يأتيها من رسائل عزيز تفهمها وتحللها، وشغل بالها كثيراً قوله أنهما التقيا فى لحظة خاطئة من الزمان وأنه مستعد للتضحية بعمره ليصحح وضعها ويلحقها بالواقع الحقيقى، فقد لخصت لها تلك الكلمات الضئيلة فحوى علاقته بها.. إنه لن يحقق ما يطمحا إليه إلا بشروطه هو مهما كان ذلك غالياً ومهما كانت رغبته فيه وهذا رمز لحياته كلها. وشعرت أنها قد اقتربت بفهمها منه درجة أرقى وأدركت أنها برغم كل حبها له لم تكن قد عرفته تماما كما يجب وأنه لا زال من جوانب شخصيته ما هو خاف عليها، وشعرت

أيضا بتحد عجيب يواجه ذلك الحب الداهم فى ذاتها ويمده برافد جديد.

ومضت شهور عديدة ورسائله تصلها بانتظام ثم انقطعت وهو يعترف لها فى آخرها بحقها ألا ترد عليه خطابا واحدا فذكرى ما سببه لها من ألم تكفيها لبقية عمرها أن تحاول نسيانه وتجنبه وأنه من جانبه سيكفر عما اقترفه فى حقها بأن يعينها على نسيانه فلا يكتب لها من بعد.

وظلت فايزة محتفظة بصمتها وسكوتها عنه حتى جاء موعد أجازة أولادها من المدارس فصحبتهم جميعا إلى مصر وقد استردت حيويتها ومعنوياتها من جديد.

ومضى أسبوع منذ وصولها قبل أن تتصل به قائلة

-كيف حالك.. أتصل للاطمئنان عليك.

-حمدا لله على سلامتك، كثير من الخطابات كتبتها إليك دون جدوى.. ربما لم تصلك.

-وصلتنى.. هل يمكننا أن نلتقى إذا سمحت ظروفك فأنا موجودة بمصر لفترة طويلة.

-ما رأيك فى بعد الغد السادسة؟

-سأكون بانتظارك.

وأتى إليها فى موعده وكانت فى انتظاره وجهها يضىء بمحبة وود فائقين ومن عينيها تطل فرحة كل لقاء واستقبلته ببشاشتها ومرحها وقد انمحى من نفسها أثر الشقاء أو علامات حزن غارت فى أعماقها يوما وتصورتها لن تزول، كل ذلك لمجرد أن رأته مقبلاً عليها وقرأت فى عينيه صدقهما ومن وجوده أشع حب لا يمكن لاهتزاز مشاعرها أن تخطىء رنته، وبادرها بقوله

-أتمنى ألا تكونى مرتبطة هذه الليلة فقد اشتريت تذكرتين لحفلة موسيقية بمسرح سيد درويش..

-لست مرتبطة بأحد سواك ما هو برنامج الحفل؟

-فرقة الموسيقى العربية.

-هذه أول مرة منذ عودتى أخرج فيها للسهر وتكون معك.. ما أسعدنى.

وكان طوال الحفل ينظر إليها ويبتسم فتنتشر ابتسامته فى قلبها تفاؤلا وفرحة ينعكس بها وجهها فيزداد جماله وفتنته، وكانت ذراعه فوق كتفها معظم الوقت أقرب إلى احتضانها، ويظل حديثهما الهامس بما يحمله من نوادر وتعليقات أمتع لأذنيها من أى موسيقى، قالت وهو يقترب بها من منزلها فى نهاية السهرة.

-أنا الليلة أسعد مخلوقة فى الوجود أحاطتنا نظرات الناس بالإعجاب والمودة فقط لأنى إلى جوارك.

-أنت يا سيدتى لا تعطينى فرصة لأسبقك ولو مرة واحدة.

-يكفيك أن تميز قلبى بهذه الأحاسيس الرائعة.

وبعد عدة أيام اتصل بها متسائلاً

-حدثت بعض التطورات السلبية لمشروع إنشاء الحزب ويغلبنى ضيق شديد هل نلتقى اليوم؟

-فى أى وقت تشاء.

-سأقابلك فى نادى سموحة بعد نصف ساعة ثم نتوجه لأى مكان تختارينه.

وطلبت منه أن يصحبها لحدائق المنتزه ففيها من جمال الأشجار والنخيل والبحر ما يشرح الصدر ويروح على النفس. وسألته وهما يتجولان بين خضرة زرعها وزرقة بحرها

-هل تعنى أن طلبكم رفض للأبد أم أن هناك شروطا معينة لقبوله يمكن الوفاء بها؟

-طبقا لقانون إنشاء الأحزاب لابد من وجود برنامج سياسى لأى حزب جديد مطلوب التصريح بإقامته بشرط ألا يتشابه مع غيره من برامج الأحزاب الموجودة بالفعل كما يجب أن يكون ممثلا أو معبرا عن اتجاه

سياسى واضح وذلك يتم مناقشته فى لجنة خاصة، وكان تقييم اللجنة لبرنامجنا عدم وضوحه بدرجة تجعله يمثل تيارا سياسيا معينا.

-وما الحكمة فى تلك الشروط؟

-لو ترك الحبل على غاربه فكل من يشاء سوف ينشئ حزبا ويفقد الأمر جديته.

-هذا منطقى، وقرارهم لا يظهر تعسفا بهذا المفهوم.

-المصيبة أنه كذلك.

وسكتت تحاول أن تفهم ثم استأنفت

-الآن يتضح لى سبب غضبك فهناك تحديد مسبق لما يجب أو لا يجب وفقا لقواعد خاصة.

-بالضبط.

وشعر بالارتياح لفهمها السريع وتجاوبها مع مشكلته مع أنها أبعد ما تكون عن اهتمامها وما كان ينتظر منها أكثر من حسن الاستماع، وفجأة قال لها بعفو خاطره

-كم أنا فى حاجة إليك يا فايزة؟

فأجابت وهى تشعر بقامتها تطالع السحاب

-أنا معك دائما وفى أى وقت تطلبنى ستجدنى إلى جوارك أينما كنت.

-بالرغم مما سببته لك وهو يكفى مائة امرأة لتكرهنى طوال العمر؟

-ما حدث ليس لجانب شر فيك وإنما يتطلب فهما.

-وحبا عميقاً صادقا.

-نعم هو كذلك، لكننا حتى لا ندور فى حلقة مفرغة لا تفضى إلى شىء يجب أن نستقر لمعطيات واقعنا فنقبل ما هو متاح.. صداقة راقية.

-ألست بذلك تقضين على الأمل فى رباط مقدس؟ لا تنسى أننا محكومون فى النهاية بما يحيطنا من أعراف ولن يسمح لنا عمرنا بهذه الطريقة من اللقاء إلى غير نهاية.

-أصعب ما فى الدنيا أن نغير ظروف حياتنا، فلا يتبقى لنا غير الهروب منها أو الانتظار لمشيئة القدر.

-أعتقد أن الحل فى مواجهة النفس فمهما حاولت الهروب لن أستطيع الهروب من نفسى وما يصطرع فيها من قوى محركة لأفعالى.. لكن المواجهة يجب أن تكون عاقلة.

-كنت قد بدأت أشعر بالراحة فى استسلامى إلى اليأس، الآن تتسلل إلى أعماقى ذكريات الألم، مع محاولتك لاكتشاف الأمل.

-صدقينى لو نجحت فى ترتيب ما تستبطنه نفسى وهيئتها لقبول واقعنا لسهل الأمر.

-العقد بين مسلكك فى الحياة وضميرك لن ينفصم يا عزيز وعقلك يخضعه للتنفيذ فى كل خطوة تخطوها، بهذا تميزت ولهذا احتملت العذاب والشقاء فكيف تغيره؟ كيف تسلك مع والدتك مسلكا لا يرضيها ولها كل الحق عليك.. وطموحك الكبير؟

-ما تراكم فى أعماقى سببه ما أحاطنى من ظروف وما استخلصته من خبرة بالحياة ويمكن لذلك أن يتغير فمن قال أنه أفضل وسيلة للعيش وقد يحرمنى منك؟ لم تكون التضحية بسعادتى خيرا ونيلها منكرا، أليس الأوجب أن تقبل أمى بحقى فى الاختيار وترضى لى بممارسته مهما كان تقديرها الشخصى؟ ماذا يهمها فى أن تكون زوجتى بكرا قبل زواجى بها أو تكون سنها مقاربة لسنى أو تزيد؟ ألا ما أتعسنى يا فايزة.

وأشفقت عليه فحاولت أن تهدئ من انفعاله وأيضا انفعالها فقالت

-سأفكر فى المسألة من جديد وأعدك ألا أفرط فى أى أمل مهما بدا ضئيلاً خافتا ولكن بشرط أن تدعونى إلى الغداء الذى كاد أن يصبح عشاء.

ولم تنم فى تلك الليلة وهجرتها طمأنينة أيامها الماضية المستقرة إلى حكم القدر وعاودها قلق المستقبل بصوره الوردية الهانئة يتخلله الشك المتربص على الدوام.

وفى لقائهما التالى اصطحبها لحديقة الحيوان ليستمتع معها -كما أفصح- بمشاهدة ما فيها من طيور وسألته مستفسرة كعادتها فى متابعته

-هل وجدتم حلا لمشكلتكم؟ اعذرنى فأنا لا أفهم فى السياسة، ماذا يعنى برنامج للحزب؟ لقد خجلت من سؤالك فى المرة السابقة لأنك كنت غاضبا.

وبعد قليل أجابها وهو يتابع سباق البجع فوق المياه كلما ألقى الحارس بسمكة

-سأضرب لك مثلا من واقعنا المعاصر يوضح لك ما نقصده، فى ألمانيا الغربية حركة اطلقت على نفسها الحركة الخضراء تدافع عن الطبيعة ضد كل ما يلوث نضارتها وعطاءها ولما قويت حركتهم وانتشرت أهدافها تحولت إلى حزب الخضر وقد فاز ذلك الحزب ببعض المقاعد فى البرلمان بالرغم من عدم وضوح اتجاه سياسى له.. فقط هدف واحد جمع بين أعضائه وناخبيه فأصبح لهم صوت مسموع وشرعى، من يدرى ربما أصبح لهم يوما ما برنامج سياسى. ولاحظ عزيز اصغاءها إليه بشغف فاستمر يقول

-لقد اجتمعنا نحن أيضا على هدف واحد هو حب مصر والعمل على النهوض بها ونحن على يقين أننا سنجد الكثيرين فى انتظار..

قاطعته فايزة وكان كل ما تسمعه يتفاعل فى نفسها

- لماذا لا تفكرون فى تنمية رأى عام يساند أفكاركم.. من خلال الصحافة مثلا كما فعلت تلك المجموعة من الألمان؟

- عدنا لنقطة البداية، لأن الصحف ستنشر ما يوافق سياستها سواء كانت حكومية أو معارضه.

- وبالطبع لا يمكن إنشاء صحيفة أو دورية خاصة بكم ولو كانت شهرية؟

- أمر صعب لكنه ممكن.

- أنا مستعدة لتدبير المال المطلوب إيمانا بك وبنبل مقصدك.

- هذا كثيّر يا فايزة.

- لماذا لا تريد أن تصدق أننى وما أملك طوع إرادتك؟

وظل مثبتا بصره على سطح البحيرة التى تفرقت فوقه أفراد البجع كل فى ناحية وقد استنفذ الحارس ما معه من أسماك وابتعد، ثم قال عزيز بعد فترة ليست بالقصيرة وكلماتها الأخيرة لا زالت تتردد فى مسامعه وكأنها معلقة فى الهواء لم تنمحى

- هذا يوحى إلىّ بمعنى واحد أنك لا زلت تؤمنين بفرصتنا أن نقترن بسبيل واحدة فى الحياة برغم أى شىء، يستقر ذلك فى وجدانك لم يتزحزح.

وردت فايزة شاردة

-أنت على حق لكننى لا أعرف مم أستقى لهذا الوجدان يقينه، والواقع كما هو لم يتغير؟

أمسك بيدها لينهضها ويمضى بها سائرين بين أقفاص الحيوانات وقد خلت الحديقة إلا من قليل، وقطعت فايزة شروده وتأمله أثناء الطريق بقولها

-لا تنس أن الثلاثاء القادم عيد ميلادك وسوف أحتفل بعيدى كما أشاء، هو اليوم الذى ولد فيه سر سعادتى فى الدنيا وأمنية حياتى حتى آخر لحظة فيها.

وطفرت من عينيها دمعة مسحتها بسرعة دون أن يلحظ، وبالرغم من ذلك قال

-توشك كلماتك أن تبكينى رغم ما تحمله من مودة وعطف.

وظل ممسكا بيدها والصمت يحتوى أفكارهما ومشاعرهما فى لحظة من اللحظات يفتقر فيها الحديث لجدواه، وبعد وقت طويل قال لها فى تردد

-أخشى أن أقتحم عليك خلوة سكونك لكننى أشعر بك تقتربين من عالم غامض مجهول، تنزعك أفكارك إليه ومشاعرك تتردد فى قبوله.. لا أدرى كيف أصف ذاتك فى تلك اللحظة وهى تجادل ما حولها بمنطق جرىء.

ورفعت إليه رأسها تنظر فى وجهه وعينيه ولم تزد عن قولها

-لو كنا معا بعيدا عن الأعين لرجوتك أن تحتضنى بقوة حتى أغيب عن وعيى بهذا الحاضر وأنطلق وأنا بين ذراعيك إلى ما أشاء من عوالم.

-لكننا لسنا بعيدين عن الأعين ولو انفردنا معا فهناك فى أعماقنا أعين تراقبنا وتحذرنا.. هذا هو مقصدك.

-إنه العالم الذى أجادله كما وصفت وأصعب ما فيه تلك العيون المنبثة فى كل جزء من كيانك لا تتوقف عن المراقبة والحساب.

-نعم أنت على حق ولكن لا تنسى أنى أراك أيضا بكل تلك العيون ومن خلالها انعكست فى بصيرتى صورتك الحقيقية والتى تستمد قيمتها العالية من تأملك والنظر إليك.

-أنت قادر دائما أن تحيرنى خاصة حين يقترب زمن افتراقنا لأظل مشغولة بك على الدوام.

وكانا قد اقتربا من منزلها وهى تؤكد معه موعدها التالى.

وفى يوم الثلاثاء المحدد للقاء قابلته ببهجة ومرح زاد على ما يعهده منها وهو كثير، وكانت آية فى حسنها وجمالها، ارتدت له أكثر ثيابها أناقة وأزهاها لونا، وتعطرت بأحب عطورها إليه، وكانت عيناها تلمعان من فرط البهاء والروعة حتى أنه ظل ينظر إليها طويلا دون أن يرد تحيتها

وهو يقرأ فى وجهها سطور الحب والإخلاص الذى لا ينتهى، ثم قالت لتخرجه من صمته الجميل

- بكل نفس من أنفاسى أحمل تهانى إليك بيوم مولدك وأدعو لك بالصحة وطول العمر والنجاح.

واستمر صمته وكأنما أعطته بقولها الرقيق سببا جديدا، ولما تعلقت عيناها به فى استسلام وكأنها تقول له أنى مصغية إليك بأية لغة تختار.. حينئذ انحنى عليها وقبل شفتيها بسرعة لم تحرمهما أن ينقلا لأعماقها ما كان يجيش فى صدره من عاطفة لم تحدها الحدود بالرغم من منعتها فى نفسه، وفطنت هى لما فعل فدمعت عيناها سعادة وانتشاء.

وعاشا يومهما كأنهما فى حلم جميل تنبض فيه مشاعر الحالمين بالهناء والمتعة بلا وسيط من مكان أو زمان، وأيقن من قولها بأن ما ينتظره فى عالمها من حب غير مسبوق لو شاء أن يقبل عليه. وأهدته فى نهاية اليوم ساعة ذهبية مكتوبا عليها اسمه وتاريخ مولده وقدمت له شيكا غير محدد المبلغ وهى تقول له

- هذا لتكاليف أول عدد من مجلتكم حسبما تكون.. لا أملك أفكارا أفيدكم بها فاقبل منى هذه المشاركة إيمانا منى بعملكم.

- صدق الشعور بالوطنية يساوى الكثير من أفكار الساسة وبرامجهم.

- هذا قول جميل.

ولم يتمالك عزيز نفسه من فرط ما أحاطه من عطفها ورقتها وصدق مشاعرها فأوقف السيارة إلى جانب الطريق مواجها أمواج البحر وقد غابت الشمس منذ قليل وبدأت الظلمة تتحسس قبة السماء.. وقال لها وهو يعتصر من أعماقه كل المعانى الممكنة

-هل يوافقك الغد موعدا لعقد قراننا؟ القوة التى استشعرها بوجودك إلى جوارى تجعلنى أطوى كل شىء نحوك.. ولم الغد فليكن فى الحال فقط قولى نعم.

ونشدت فايزة من وجودها كل قوة ممكنة لضبط النفس وهى تجيبه

-نعم أقولها لك فى كل لحظة وسأظل أفعل طيلة حياتى، لكن انتظارك لها واستفسارك عنها الآن يخالف مقوماتها فى تقديرك وهو لا يصح.

-إنى صادق فيما عزمت.

-أنا متأكدة من صدقك لكنه يرتبط بمعطيات اللحظة الراهنة ويهرب من دواعى الاستمرار وإلا فما سبب العجلة؟ ليست اللهفة فأنت قادر على ضبط نفسك، وإنما أنت تستشعر قوة غامضة للتغاضى عن مبادىء وأسس راسخة فى كيانك فتحاول انتهاز اللحظة.. تلك القوة يا عزيز بعيدة عن قواعدك.. وأحب أن أؤكد لك صراحة أن نعم التى أرددها دائما هى لك حين تتغير تلك القواعد إلى ترتيب آخر يجعل

وجودى فى حياتك منسجما مع كل ما يحيطك.. بهذا أضمن لحبنا الاستمرار والازدهار.

-لكن اقترابنا سيضعنا أمام أمر واقع نتخذه بداية لتغيير كل المواقف ونواجه التجربة بإرادتنا معا.. سوف يجبر ذلك الجميع لقبوله وقد أصبح حادثا.

-أنا لا يهمنى سواك ولا أحب أن تكون مدفوعا لقبولى فى أية لحظة من العمر، ومرة أخرى يا عزيز المشكلة ليست فى نفور والدتك من زواجك بى وليست فى فارق الثروة بيننا كما تشعر به..

قاطعها قائلا وهو يقاوم أفكارها

-تعنين أن موافقة أمى لو حدثت وفارق الثروة بيننا إذا زال ليس له تأثير على تقديرى لموقفنا معا؟ أستشعر فى ذلك اتهاما يتخفى فى أعماقك بعيدا عن إدراكنا معا.

-مشاعرنا صادقة لا شك فيها على الإطلاق، وإنما لا يمكن لعقلى أن يستسيغ أنك بقوة إرادتك وعلو نفسك يستعصى عليك إرضاء أمك وتطويعها لرغبتك ومشيئتك، كما لا أفهم كيف بذلك الطموح المتألق فى مستقبلك وعلامات النجاح الواضحة فى عملك تفترض فى ثروتى عائقا لنا.. إننى على يقين أنك فى خلال عدد قليل من السنين ستصيب

من النجاح والسطوع فى المجتمع ما يتضاءل معه قليل من المال أمتلكه، وستتمنى أيا من تراك لو ارتبط مصيرها بمصيرك..

-فهناك فى نفسك اتهام ما؟

-ليس اتهاما.. إنها كلمة بشعة اكره سماعها ممن وهبته روحى ولا أشك لحظة فى أمانته عليها أو فطنتى حين فعلت.

-وكيف أصفه إذن وقد اعترفت بوجوده؟

-لا أنكر ذلك الشىء الذى يتحفز فى أعماقى ولا أستطيع استيضاحه معظم الوقت لكنه أبعد ما يكون عن المساس بك، بل ربما قلت حتى تطمئن لمقصدى أنه لو كان اتهاما كما وصفته فهو اتهام لى وأنا المقصودة به.

وكان المساء قد غلب وموج البحر لا يدرك منه غير صوت التكسر والتثنى والانتهاء فى استمرار وتكرار، وبعد توتر الصمت قال فى هدوء

-حدثينى بصراحة.

فأجابته وصدرها يعلو ويهبط وكأنها تنتزع من ثنايا قلبها سرا خافيا

-بالرغم من حبك الكبير لى هناك فى نفسك شىء ما يرفضنى.. جانب من كيانك يتحايل على الدوام ألا يتحد خطونا.. صدقنى لقد حاولت ولا زلت- أن أبحث عما فى نفسى يمكنك أن ترفضه ويختفى فيك هذا الاختفاء، سألت نفسى لأننى مطلقة وأجبتها إن ذلك يعرف

سببه ولولاه ما التقينا، لأننى أم لأطفال ثلاثة يخشى أن تلقى ظلالهم على حياتنا معا وتبينت سخف ذلك وأنا أشهد من سعة الصدر فيك وعمق المحبة لهم، كما أننى لا زلت قادرة على أن أنجب لك ما تشاء من ذرية لو تردد فى وعيك هذا التساؤل، ولما أعيانى التفكير توصلت إلى نتيجة أعتقد أنها صائبة وهى أنك فى قرارتك لا تشعر بوجود هذا الرفض فيك بل وتقاومه دون وعى منك لأنه ضد رغبتك الحقيقية، لهذا لا أجد له سببا واقعيا يمكن أن أستدل به على وجوده سواء فى عالمك أو فى عالمى.

وسكتت قليلا تلتقط أنفاسها وهو يستمع ونظره ساهم فى الظلام المتكاثف من حوله ثم أضافت

– نعم ليس سببا الأم أو المال.. وإنما هو شىء آخر لا أعرفه وأنت أيضا لا تعرفه، فهو ليس اتهاما إنما هو نوع من المأساة، ولعلك تقتنع الآن بأن قولى لك نعم مؤكدة ما حييت، نعم يقولها كل منا للآخر لا نغافل بها اللحظة الحاضرة ولا نبارز بها أياما مقبلة. وأتمنى من الله لو أعرف متى تتهيأ لها نفسك الراقية.

ولم تقاوم نفسها تلك اللحظة فمالت عليه تحتضن رأسه وتلثم جبهته ويتساقط دمعها فوق شعره والحرارة المنبعثة من صدرها على

وجهه تذيب فى كيانه أى وعى أو إدراك أو إرادة يمتلكـها بشـر، وتصـور أنه سمعها تقول

-أرجوك يا عزيز أن توصلنى إلى بيتى أشعر كأنى أفقد الوعى.

واعتدل فى جلسته دون أن يقرر وتوجه بها إلى منزلـها، ولمـا اقـترب منه حيث اعتاد أن يتوقف بها انتبهت لوصولـها ففتحـت البـاب ونزلـت واختفت بعد قليل عن ناظريه.

وتتابعت عليها الأيام بعد ذلك دون أن تفكـر فـى الاتصـال بـه وقـد ارتأت فى هذا رحمة به وحرصا عليه مهما يكن أثره على نفسها وقد قدر هو أن انطواءها على ذاتها وعزلتها طريق اتخذتها لتعكف علـى حياتـها متدبرة متفكرة فلحترم لها قرارها وعزم ألا يخـدش الـهدوء الـذى تنشـده وهصر فى نفسه أية محاولة للاتصال بها والاستفسار عن انقطاعها.

ومنحتها العزلة وهدوءها مزيدا من الوضوح وصفاء النفس فاطمـأنت لتقديرها وارتاح بالها قليلا وهى تستيقن من وعد العمر الذى تمثل فـى كائن ما أسلمته سببا لوجوده واستمراره فى حياتها إذا شاء، وإذا لم توافقه أقداره فيكفيها أنها قابلته وعرفته من كثيرين وطريقـه إليـها مـأمول.. أمـا حاضرها المستمر ورصيدها المنظور من المستقبل فهو أبناؤهـا تـهيؤهم للحياة بما وهبها الله لتضيف لمجتمعها قـوة بنـاء مطلوبـة، ولـن تغـادر بهم مصر مرة أخرى فهى مستقرهم جميعا مهما شحب الوعـد فـى حيـن

أو توارى فى تصاريف القدر، ومن يدرى ربما كانوا هم وعدها من الحياة الأحق بالصبر والكفاح وإن ظلت دائما تنظر فى اتجاه آخر وتنتظر.

الفهـــرس

الفصل الأول : هي ومـــن حولهـــا ٥

الفصل الثاني : روافد من المجهول ٤٩

الفصل الثالث : وهل يتحقق الوعـــد ١٠٩

رقـــم الايـــداع ١٣٠٥٢ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-209-052-X

مطابع الكتب المصرى الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
ت ٤٤٤١٠٧٠ – ٤٤٤١٠٧٤ – تلكس ٤٤٤١٠٧٧